الهيئة العامة لقصور الثقافة

ذاكرة الوطن

# المعلم يعقوب

## بين الأسطورة و الحقيقة

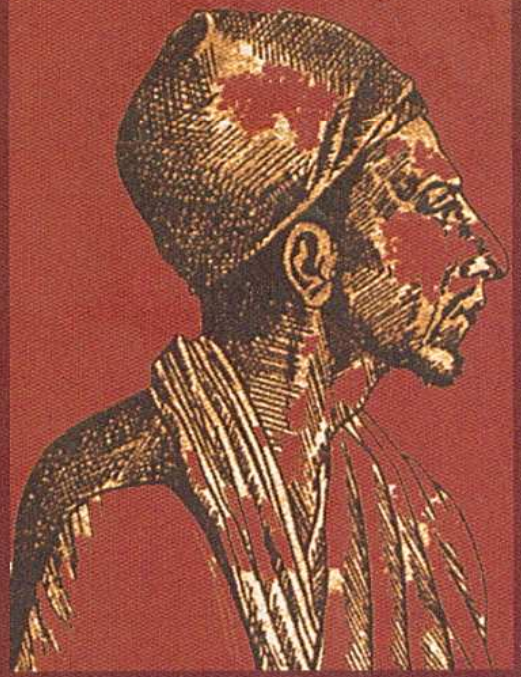

د. أحمد حسين الصاوي

رفع بعض الباحثين "المعلم" يعقوب إلي مصاف الأبطال الوطنيين، وفي هذا الكتاب "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" تختلف الصورة تمامًا.

يتناول الكتاب سيرة "الجنرال" يعقوب منذ نشأته، معتمدًا على عدد وفير من المراجع والوثائق ومركزًا على صلته بالحملة الفرنسية، حيث اختار منذ البداية لنفسه نهجًا واضحًا لم يحد عنه، إذ ربط نفسه بالحملة ومصالحها واختار أن يرحل مع قواتها بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومُنيت مشروعاتهم في استعمار مصر بالفشل.

الغلاف: د. خالد سرور

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg

الثمن : جنيهان

# المعلم يعقوب

## بين الأسطورة والحقيقة

د. أحمد حسين الصّاوى

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة


سلسلة
ذاكرة الوطن

2

سلسلة تعنى بنشر كتب مختارة تعبر عن تاريخ مصر الثقافى والوجدانى

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة



رئيس مجلس الادارة
د. احمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
أسامة عفيفى
مدير التحرير
طارق هاشم
سكرتير التحرير
محمد الفخرانى



• المعلم يعقوب
بين الأسطورة والحقيقة
• د. احمد حسين الصاوى
الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2009م
44ص- 24,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
• رقم الإيداع: 7193/2009
• الترقيم الدولى: [illegible]
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع امين سامى قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 داخلى: (180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الامل للطباعة والنشر
ت: 23900396


الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الاول.


• حقوق النشر والطباعة محتفظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر اعادة النشر أو النسخ او الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة الى المصدر.

# المعلـم يعقـوب

## بين الأسطورة والحقيقة

تقديـم

الكبير د. أحمد حسين الصاوي . . والذي ألفه في منتصف الثمانينات للرد على تلك المقولات الزائفة خاصة أن الرجل اعتمد على كثير من الوثائق الإنجليزية والفرنسية التي كشفت دوره منذ ما قبل الاحتلال بل وتعاونه مع المماليك ضد أبناء جلدته المصريين من مسلمين وأقباط، موضحا موقف "الكنيسة المصرية" الوطني من الاحتلال الفرنسي، وموقفها منه شخصيا منذ تعاونه مع المماليك وحتى تعاونه مع الفرنسيين وخروجه معهم مهاجرا إلى فرنسا بطلب شخصي منه حتى لا يفتك به أبناء وطنه جزاء خيانته لهم.

ورغم أهمية كتاب الدكتور الصاوي إلا أنه لم يستطع أن ينشره بعد تأليفه، وطبع طبعة محدودة نفدت في حينها، وأصبح الحصول على نسخة منه أمرا مستحيلا، ولقد أعاد الراحل الكبير رجاء النقاش الاعتبار للكاتب وكتابه عندما اعتمد عليه في تفنيد رأي لويس عوض عن المعلم يعقوب . . ونتيجة لما كتبه رجاء النقاش عن كتاب الدكتور الصاوي بدأ المثقفون يبحثون عنه في المكتبات بلا جدوى. وأقترحت على عمنا رجاء النقاش أن يعيد نشره في سلسلة "ذاكرة الكتابة" التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة وكان يرأس تحريرها . . فقال لي ضاحكا _يرحمه الله _إنها في دائرة تخصص سلسلة "ذاكرة الوطن"، ومنذ هذه المكالمة وأنا أعتبر أن إعادة إصدار هذا الكتاب إحدى وصايا أستاذنا رجاء النقاش قبل رحيله مباشرة فضلا عن كونه إعادة اعتبار لأستاذ الأساتذة د. أحمد حسين الصاوي الذي لم يعد يذكره أحد . . رغم أنه رائد من رواد الإعلام



رغم إجماع مؤرخي التاريخ المصري الحديث على "خيانته" لتعاونه مع المحتل، ورغم أن وثائق المحتل نفسه قد كشفت دوره في التآمر على المقاومة الشعبية خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية. إلا أن "المعلم يعقوب" قائد ما سمي بـ"الفيلق القبطي" التابع لجيش نابليون مازال محور جدل ونقاش . . . فالبعض حاول ويحاول أن يصوره للأجيال الجديدة كرائد للتنوير. وكثائر على الظلم العثماني والمملوكي، وأنه صاحب رؤية ونظرية ترى إمكانية التحالف مع الفرنسيين لإدخال الديمقراطية والعدالة في المجتمع العربي . . . ورفع الظلم عن كاهل الإنسان المصري !!! مع أن الحقيقة غير ذلك تماما، وفي محاولة لوضع الأمور في نصابها الحقيقي وإظهار الحقيقة حفاظا على ذاكرتنا من التشويش الذي تستهدفه جهات عديدة لأغراض ليست وطنية . . . نعيد نشر هذا الكتاب للعالم الراحل

الكنيسة للمعلم يعقوب من التناول لأنه خرج عن تعاليم الكنيسة، واتخذ له "جارية" غير زوجته تشبها بالمماليك . . . فضلا عن الشكاوي التي كانت ترد إلى الكنيسة من رعاياها الأقباط في الصعيد من سوء معاملته . . يتفرد أيضا "روفيله" بموقف الكنيسة الوطني الواضح منه بعد تشكيله للفيلق القبطي بأوامر من نابليون. واعتبار الكنيسة أن ذلك الموقف تعاون مع ممثل "الكاثوليكية" _ نابليون والذي ترى الكنيسة أنه خروج واضح عن تعاليمها. الكتاب الذي بين أيدينا يناقش بشكل علمي يعتمد على الوثائق العربية والأجنبية ليحسم بشكل لا يقبل الجدل حقيقة "المعلم يعقوب" الذي يريد البعض الآن أن ينصبه "ثائرا وتنويريا" في محاولة لطمس الذاكرة الوطنية، وإشاعة مفاهيم غير وطنية منها أن التعاون مع العدو ممكنا بل إن "الخيانة" نفسها يمكن أن تكون وجهة نظر.

**أسامة عفيفى**



ومؤسس لأغلب أقسام الإعلام في الوطن العربي. فضلا عن دوره في التأريخ للطباعة والصحافة . .

وترجع أهمية كتاب الدكتور الصاوي "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" إلى أن الرجل أراد أن يقدم بشكل علمي الحقائق كما هي، وسعى لتمحيص الآراء المختلفة من خلال الوثائق والمراجع والشهادات وخرج بمجموعة من الحقائق الهامة التي أرى أن أهمها توضيح موقف الكنيسة القبطية المصري الوطني من الاحتلال الفرنسي، وأن تسمية جيش يعقوب باسم "الفيلق القبطي" كان الغرض منه إثارة الفتنة الطائفية في حين أن الكتاب يكشف لنا بالوثائق أن هذا الفيلق كان يضم مجرمين سابقين من المسلمين والمرتزقة من خارج البلاد من أرمن وأتراك، وأنه ضم على حد تعبير الجبرتي الذعر والحرافيش من المنسر إلى جانب شراز النصارى الوافدين، ولفظ "النصارى" في الأدبيات التاريخية يعني "المسيحيين غير المصريين" فالمسيحيين المصريين كان يطلق عليهم مصطلح "الأقباط"، بل إن الدكتور الصاوي يكشف لنا في كتابه الهام عن دور "المعلم يعقوب" في العمل مع المماليك في جمع الضرائب والجزية من الفلاحين الأقباط في الصعيد، وغلظته وشراسته في التعامل مع الفلاحين المصريين سواء كانوا مسلمين أم أقباط، ولقد اعتمد الدكتور الصاوي على مرجع قبطي هام هو "تاريخ الأمة القبطية" ليعقوب نخلة روفيله الذي أفرد فصلا خاصا لعلاقة "المعلم يعقوب" بالمماليك ثم الفرنسيين، ولقد تفرد "روفيله" بخبر حرمان

# مقدمة

هذه دراسة لصفحة من تاريخ مصر ، نعرضها بكل موضوعية وبنظرة علمية مجردة تتخطى حدود أية حساسيات ، ونرجو أن يتقبلها القارىء برحابة صدر ودون ما حساسيات كذلك . فهدف الدراسة هو جلاء الحقيقة ، والحقيقة وحدها . ولا فرق أمام الحقيقة وأمام التاريخ بين مسلم ومسيحى .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر غزواً له سماته المتميزة . وإذا كان الفرنسيون قد فشلوا فى امتلاك مصر أو فى إعادة تشكيل هيكلها السياسى والاجتماعى،فالذى لاشك فيه أن حكمهم لمصر ثلاث سنوات كان فى حد ذاته هزة عنيفة أحدثت نتائج بعيدة المدى قوية الأثر فى حياة مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية . ولعل من أسوأ نتائج هذه الحملة ما أوشكت أن تحدثه من شروخ فى بنية الأمة ووحدتها .

فتحتْ مصر بعد الحملة صفحة جديدة فى تاريخها واستأنفت مسيرتها بما وعته من دروس ، أمة واحدة . وبنى الشعب المصرى بمسلميه وأقباطه دولته الحديثة . ونحن أبناء هذا العصر نفخر جميعا ونعتز بأبطالنا وأفذاذنا من هؤلاء وأولئك ، الذين أسهموا بكل إخلاص وتجرد



فى بناء الوطن والعمل على استقلاله ورفعته وتقدمه ، وبالقدر نفسه نلفظ منهم كل من انحرف عن الطريق أو أساء إلى قومه وبلاده .

د/أحمد حسين الصاوى

# تمهيد

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب ... شخصية مصرية تصلح لبناء قصة درامية مثيرة . كتب عنه عدد من المؤرخين ، ولكنهم على قلتهم اختلفوا فيه أيما اختلاف : منهم من هاجمه بعنف وضراوة واعتبره خائنا لقومه وبلاده ، مثل مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى . ومنهم من اكتفى بأن سجل نشأته وسرد مختلف مراحل حياته ، وإن لم يخل ذلك من محاولة تصويره فى صورة زعيم مرموق من زعماء طائفته ، مثل بعض مؤرخى الأقباط . ومنهم كذلك من وقف موقف المؤرخ المدقق فناقش فى اجتهاد ملحوظ بعض الوثائق التى نسبت إلى يعقوب من الأمور الخطيرة فى آخر أيام حياته مالم يعرف عنه فى حينه ، مثل أستاذنا شفيق غربال . ثم جاء أخيرا من مضى خطوة أبعد ، فرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين مثل الدكتور لويس عوض .

إن اختلاف الرأى التاريخى حول شخصية عامة لهو من الأمور الشائعة التى ألفناها ، سواء فيما يتصل بشخصيات تاريخنا أو تاريخ غيرنا . فكيف نكتنه الحقيقة ؟ إن واجب المؤرخ الصادق بعد أن يلمس مدى تفرق السبل بمن سبقه من المؤرخين فى هذا الصدد ، وتفاوت



أحكامهم بين الأبيض الناصع والأسود القاتم عبر مختلف درجات الرمادية ، واجبه أن يكون حكما عدلا ، فيبحث ويناقش ويحلل ويستنتج بعقل متجرد ومنطق واضح ومنهج سليم . وليس هذا بالأمر الهين وإنما هو مهمة ثقيلة محفوفة بالمخاذير حافلة بالمشقة،فضلا عما تتسم به أحيانا من حساسيات . وسوف أحاول فى هذه الدراسة بمناقشة كل ما كتب عن الجنرال يعقوب ، وما أمكن العثور عليه من وثائق تتصل بحياته ، وباستقراء الظروف والملابسات التى نشأ وعاش فى ظلها والأحداث التى تفاعل معها ، أن أستخلص ملامح صورته الحقيقة دون ما مبالغة أو تضخيم ، ودون ما « رتوش » أو ظلال . وهو قبل كل شىء مواطن مصرى برز على مسرح الأحداث خلال فترة بالغة الأهمية فى تاريخ مصر الحديث . ولا يكاد الجيل الحالى من المواطنين يعلم عنه شيئا . والقلة القليلة التى تعلم تختلف أو تتخبط فى الحكم عليه ، تبعا لما تأثرت به من كتابات تتراوح بين ذروة الإشادة وحضيض التجريم .

# أقباط مصر

كان أقباط مصر إبان العصر العثمانى يمثلون أقلية متميزة تعيش فى نطاق أوضاع وتقاليد شكلية خاصة مثل التزيى بزى معين ، أو اتخاذ لون معين للعمامة . وقد رسخت هذه الشكليات عبر القرون منذ أصبحت مصر قطرا إسلاميا ، وتأكدت بعد أن صارت مصر ولاية عثمانية تخضع روحيا وزمنيا لسلطان خليفة المسلمين فى استانبول ، ويحكم استقرارها نظام فريد يقوم على لون من توازن القوى بين الوالى والمماليك وقوات الجيش العثمانى ( الأنكشارية ) .

ولم يكن فرض تقاليد معينة أو أوضاع خاصة على أقلية من الأقليات — دون ما دخول فى التفصيلات — بدعا أو أمرا غير مألوف فى تلك الأيام . فقد كان ذلك سمة من سمات مختلف الأنظمة التى حكمت مجتمعات العصور الوسطى شرقا وغربا ، فى ديار الإسلام وفى غير ديار الإسلام . وقد اتسع نطاق تلك الأوضاع والتقاليد ليضم مع الأقباط نصارى الشام والأروام ( اليونانيين ) بجامع المسيحية فى كل .

ولم تعش طائفة الأقباط بطبيعة الحال منعزلة أو مقطوعة الصلة بسائر طوائف المجتمع المصرى وطبقاته . فبغض النظر عن تلك الأوضاع



والتقاليد الخاصة التى أملتها الاعتبارات « الإسلامية » و « العثمانية » ، فقد عاش الأقباط أفرادا وجماعات جنبا إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين فى وئام ، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة ويشاركونهم عديدا من المناسبات الاجتماعية وبخاصة تلك المتوارثة من قبل دخول المسيحية والإسلام إلى مصر ، متمثلة فى الأعياد والاحتفالات المصرية الأصيلة كوفاء النيل وشم النسيم . بل بلغ الأمر فى هذا الصدد أن اختلطت أحيانا بعض المناسبات فارتدت ثيابا إسلامية مسيحية مشتركة فوق ثيابها المصرية القديمة ، وشارك فيها الجميع فى حماس وشعور عميق بالانتماء إلى تراث مشترك .

ومن الامانة التاريخية هنا أن نشير إلى أن هذا التعايش السلمى عميق الجذور تعرض أحيانا قليلة إلى بعض الشروخ السطحية ، نتيجة احتكاكات طفيفة أملاها الجهل والتعصب . وهى حالات نادرة محدودة النطاق ، ولايمكن أن نقاس إلى مثيلاتها فى أوربا أو آسيا فى تلك الأيام .

وبالاضافة إلى ذلك فقد توارث الأقباط حرفا ومهنا معينة حذقوها وبرعوا فيها وتعمقوا أسرارها ، وأصبحت حكرا لهم ووقفا عليهم ، لم يحاول مواطنوهم المسلمون أن يشاركوهم إياها ولا أن ينافسوهم فى مجالاتها . وكان على رأس ما حذقه الأقباط وبرعوا فيه مهنة الصيرفة وما يتصل بها من حساب الأموال عداً وجباية وتحويلاً وخصماً وإضافة ... الخ . ومن ثم اعتمد عليهم الأفراد والجماعات فى عمليات الصيرفة والحساب اعتمادا تاما . فلكل تاجر أو مملوك أو ناظر وقف « محاسب » قبطى « يمسك دفاتر » الدخل والمنصرف ويحسب الحق والمستحق . وقبل هؤلاء كان المسئولون من « الكشاف » و « المحتسبين » و « الملتزمين » يعهدون إلى المحاسبين الأقباط بهذه الأعمال فيما يتصل بالأموال العامة للولاية . وكانت علاقة هؤلاء المحاسبين بمن يعملون لهم هى الأخرى علاقة حميمة تحكمها المصلحة المتبادلة أولا ،

وكان من المنطقى كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم ، وبخاصة بعد أن لمسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات . فأخذوا منذ استقر الأمر لهم فى القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد ، ولمساعدة الجهاز الإدارى على تدبير شئون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمحكومين على السواء .

وكان من المنطقى أيضا أن يغتر هؤلاء الأقباط ومن ظاهرهم فى موقفهم من نصارى الشام والأروام بما حققوا من مكانة لدى الحاكم الجديد ، فيحاولوا أن ينزعوا عنهم ثوب المهانة الاجتماعية ، فيتحللوا من تلك القيود الشكلية التى فرضت عليهم قرونا ، ويبالغوا فى ذلك أحيانا بما يؤذى مشاعر المسلمين . ويسرد الجبرتى من حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣ ( عقب دخول الفرنسيين ) « ... ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين ، كل ذلك بما كسبت أيديهم ... » [1]

ولكن يبدو أن الأمر فى هذا الصدد قد جاوز حدوده المعقولة ، ففى شهر رمضان التالى ، وهو شهر له مكانته الخاصة فى نفوس المسلمين ، حال الفرنسيون دون تدهور العلاقات بين الفريقين بمنع الطوائف المسيحية من تحدى مشاعر المسلمين . ويقول الجبرتى « ثم إن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك . ونبهوا أيضا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك بمرأى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » [2] .



وإن كانت لا تفتقر إلى الوئام .

وقد جنى المحاسيب الأقباط من مهنتهم أموالا طائلة، وبخاصة من كان منهم يعمل مع كبار « الممولين » أصحاب الإقطاعيات الشاسعة والثروات الضخمة والخيرات الوفيرة التى تتيح أوسع الفرص للكسب المشروع وغير المشروع .

وتضخمت ثروات بعض الأقباط فصاروا من كبار الأغنياء المعروفين الذين يكونون مع غيرهم من أغنياء التجار والعلماء ومن إليهم طبقة اجتماعية واحدة ، لها امتيازاتها ومصالحها ولها نمط حياتها الخاص . فشيدوا مثل غيرهم من الأغنياء أفخم الدور والقصور ، وفرشوها بكل غال وثمين ، وملكوا العبيد والجوارى ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم والحراس وبكل مظاهر الحياة الرغدة المترفة الناعمة .

وبينما كانت القاعدة العريضة من الطائفة القبطية تتعايش مع القاعدة العريضة من المسلمين تعايشا سلميا كاملا فى قرى مصر ومدنها ، كان متنوّرو الطائفة وأغنياؤها أكثر إحساسا أو حساسية بتفردهم أو اغترابهم من حيث هم أقلية مسيحية صغيرة تعيش وسط مجتمع إسلامى كبير ، وتحكمها قيود وأوضاع اجتماعية خاصة .

الفروسية مع من عمل فى خدمتهم من المماليك ، وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال . وقد حارب يعقوب بالفعل فى صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التى نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثمانى قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة ( شكل ( ١ )

ويقول من أرخوا ليعقوب من أبناء طائفته « إن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم » (٣) . وقد تبدى ذلك فى بعض مظاهر حياته ، فقد خالف أبناء قومه فى الزى والحركات ، كما اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية ( كانت سورية من حلب ) . ولم يكن رجال الدين راضين عن غروره وخروج تصرفاته معهم ومع الكنيسة عما تنبغى مراعاته من الأصول والتقاليد . وقد نصحه بطريرك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته وبأن يعيش كسائر إخوانه ، ولكنه رفض النصيحة .

هذا هو « المعلم يعقوب » الذى كان فى الثالثة والخمسين من عمره عندما غزت الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال بونابرت . وقد بلغ شأوا بعيدا فى قومه ، فكان من كبار الأثرياء ومن زعماء الطائفة المبرزين فى مجتمع القاهرة وأقاليم الصعيد على السواء .

فكيف بدأت حركة التعاون بين القبط والفرنسيس ، وكيف تطورت ؟

يقول جورج ريجو (G. Rigault) فى كتابه « الجنرال عبد الله منو » أنه كان على بونابرت وهو يرأس جهاز الحكم فى مصر أن يضمن الوجود المادى للجيش الفرنسى . ولكن بما أن الأقدار قد ألقت به إلى بلد غير متحضر ، فلم تكن لديه أية وسيلة يستطيع بها أن يعرف حصيلة الإيرادات أو ينظم جباية الضرائب . ولكن كان أمامه الأقباط . فمن قبل الحملة كان المماليك دائما يعهدون إلى هؤلاء المسيحيين



وينبغى أن نلاحظ أن استعانة الفرنسيين بالأقباط فى الأمور المالية بالذات كانت ضرورة حتمتها خبرة هؤلاء الطويلة السابقة ، واحتكارهم لكل المعلومات المتعلقة بهذا الشأن . أى أن إرادة الطرفين التقت عند غاية واحدة هى التعاون بينهما لما فيه مصلحة النظام الجديد .

وقد دعم من هذا التقارب أن الحملة الفرنسية ، شأنها شأن سائر حملات الغزو الاستعمارى وموجاته قديما وحديثا وبالرغم مما رفعته من شعارات وما أذاعته من تمويهات ، وجدت فى سياسة التفريق بين الطوائف واحتضان الأقليات ما يعينها على تثبيت أقدامها وتحقيق أهدافها .

ولكن المستعمر من ناحية أخرى قد يغرى بالتعاون معه أحيانا بعض ضعاف النفوس أو ضعاف الانتماء من غير أبناء الأقليات ، ممن لا يبغون سوى تحقيق مصالحهم المادية القريبة . وسواء أكانت المبادرة من جانب المستعمر أم من جانب أولئك الوصوليين الانتهازيين فالنتيجة واحدة . وعلى ذلك فلم يكن نصارى مصر وحدهم هم الذين ابتغوا الأمن والجاه والمنعة فى كنف الفرنسيين ، وإنما شاركهم فى هذا الاتجاه بصورة ما من بقى فى مصر من المماليك ( المسلمين ) وعلى رأسهم مراد بك . لقد ظل مراد ورجاله مثلا يناوشون القوات الفرنسية فى الصعيد حتى آثروا فى عهد كليبر حقن الدماء والتعاون مع الغزاة مقابل الإبقاء على مغانمهم وإرضاء جشعهم واستمتاعهم بممارسة قدر من السلطان يواصلون به ما اعتادوا عليه من التحكم فى رقاب العباد . وكذلك فعل مماليك آخرون ممن شايعوا مراد بك فى الصعيد وغير الصعيد من أراضى مصر . كما جهر بتعاونه نفر من قدامى موظفى الحكم العثمانى .

ديسيه . وقد هنأه القائد الفرنسى على حسن بلائه وقدم إليه سيفا تذكاريا نقشت عليه « معركة عين القوصية – ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ » .

وفى هذا الوقت كانت حدة القتال فى الصعيد قد هدأت ، وساعدت الطبيعة الجغرافية للصعيد من احتمى به من المماليك على أن يجدوا ملاذا آمنا فى كفوره ونجوعه القابعة فى بطون الجبل ، كما عاق ضيق الوادى المطرد نحو الجنوب أى تقدم فعال للقوات الفرنسية الزاحفة التى اكتفت بإقامة نقاط عسكرية فيما احتلت من أقاليم . ومن ثم طالت حملة الصعيد أكثر مما كان متوقعا .



شكل رقم (١)

# في عهد كليبر

غادر بونابرت مصر فجأة ( فى أول أغسطس ١٧٩٩ ) عائدا إلى فرنسا ، وخلفه فى القيادة الجنرال كليبر (Kléber) الذى كان يضيق ببقاء الفرنسيين فى مصر ويتطلع للعودة بجيش الشرق إلى بلاده ، بعد أن تيقن من فشل الحملة فى تحقيق أغراضها . ومن ثم رحب بالتفاوض مع العثمانيين والإنجليز تمهيدا للجلاء عن مصر ، وإن لم يقدر لهذا الجلاء أن يتحقق فى عهده .

وعاد ديسيه من الصعيد ليكون إلى جوار قائده فى ظروفه غير الموانية . وكان ثانى اثنين مثّلا كليبر فى مفاوضات الصلح مع الجانب العثمانى الإنجليزى فى ديسمبر عام ١٧٩٩ . ولم تلبث اتفاقية العريش التى أبرمت بين الجانبين فى أول عام ١٨٠٠ أن نقضت ، ونشب القتال بين الفرنسيين والعثمانيين ، وقد انتصرت فيه قوات الحملة بقيادة كليبر انتصارا حاسما ( موقعة عين شمس – مارس ١٨٠٠ ) .

ولكى يحقن كليبر دماء جنوده بعد أن كان العثمانيون قد تغلغلوا فى البلاد وأثاروا الجماهير ضد الفرنسيين إثر نقض اتفاقية العريش ، وقع مع مراد بك اتفاقية « سلام وتحالف » (Paix et alliance) وكانت



المماليك والعثمانيين «وأعانوهم بالمال واللوازم» مداراة لهم وفداء لأرواحهم وعطفا على حركتهم ، فإن يعقوب «كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى ( أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت ) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى ( من زعماء المماليك ) معه [٦]".

ويعترف مؤرخو الأقباط بأن يعقوب ومن تحصن معه من أخلاط القبط والشوام والأروام وبعض الفرنسيين قد حارب قوات العثمانيين والمماليك بعد نقض معاهدة العريش . ولنقرأ ما كتبه أحدهم ( رؤوف حبيب ) نقلا عن عدة مصادر « وكادت نار تلك الثورة أن تلفح القبط بشواظها لولا أن تدارك المعلم يعقوب الأمر بشجاعته المعهودة وحسن دفاعه ، فأظهر فى تلك الظروف العصيبة مقدرة منقطعة النظير واستهدف لخطر داهم ، وظل رابط الجأش على عسكره وهويئ فيهم روح الحماس بعباراته النارية وجرأته الرائعة ، وثبت إلى النهاية أمام حصار عنيف وخصم عنيد لدود حتى تم له النصر » [٧] .

أخمد كليبر ثورة القاهرة مستخدما أبشع أنواع القهر والقمع والإرهاب . ثم فرض على المصريين كثيرا من المغارم عقابا لهم على الثورة . ونظرا لموقف المعلم يعقوب المتميز فى أثناء الثورة ، بالإضافة إلى ما ظهر من مواهبه من قبل ، فإن كليبر على حد قول الجبرتى « وكّل يعقوب القبطى يفعل فى المسلمين ما يشاء » . ويفصل القول فى ذلك فيذكر « إنهم ( أى الفرنسيين ) وكّلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطى وتكفل بذلك وعمل الديوان ( أى أقام مكتبا ) لذلك ببيت البارودى » [٨] .

كان طبيعيا بعد فشل ثورة القاهرة الثانية أن يزيد زهو الأقباط وخيلاؤهم ، وبخاصة من عمل منهم فى خدمة الفرنسيين ، وأن يشايعهم

فى ذلك غيرهم من نصارى الشام ومن إليهم ، وأن يسوء سلوك هؤلاء وأولئك فى معاملة المسلمين إلى أقصى حد . ونستطيع أن نتبين قتامة الصورة من عبارات الجبرتى التى وصف بها هذه الحالة والتى تقطر مرارة وسخطا . فهو يقول مثلا « تطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين .. »[٩] . ويشير الجبرتى إلى تعسف السلطات الفرنسية فى تحصيل المغارم التى فرضتها على المصريين ، من أموال وغلال وماشية وغيرها ، فيقول « وكل ذلك بإرشاد القبطة وطوائف البلاد ( يقصد الأقليات المسيحية الأخرى ) لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم ( أى الفرنسيين ) بجمع المال . ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنساوية وهو فى أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والاتباع ... والخدم والفراشون ... وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات .. والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة ... ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهته المستوفين ( أى المحصلين ) من القبط أيضا ... ومعهم العسكر من الفرنساوية .. والصرافين والمقدمين ... فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسب ، وخصوصا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم مقدرتهم ، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم وسحبوهم معهم فى الحبال وأذاقوهم أنواع النكال »[١٠] .

أما يعقوب فقد تعاظم نفوذه وعلت مراتبه ، وبلغ فى علاقته بالفرنسيين شأوا بعيدا . صحيح أنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع



للفرنسيين ، كما يقول أستاذنا شفيق غربال ،[١١] وصحيح أنه ازدهى بنفسه وركبته الخيلاء ، ولكنه انفرد دون بنى قومه بما نسج حول اسمه تلك الأسطورة الدرامية التى اختلفت فيها الآراء .

لقد منحه كليبر رتبة « كولونيل » وجعله على رأس فرقة عسكرية من شباب القبط . فما هى قصة تلك الفرقة أو « الفيلق » كما عرفه المؤرخون ؟

يقول مؤرخو الأقباط ( نقلا عن جاستون حمصى )[١٢] إن المبادرة جاءت من جانب المعلم يعقوب الذى « فكر فى تأليف فرقة قبطية » . وفاتح الفرنسيين فى ذلك فوافقوا . ويقولون إنه بعد أن جمع يعقوب شباب هذه الفرقة وكل كليبر أمر تدريبهم إلى ضباط فرنسيين . ويزيدون على ذلك أن يعقوب هو الذى جهز هذا الفيلق بالسلاح والميرة على نفقته الخاصة .

ويجارى الأستاذ شفيق غربال كذلك جاستون حمصى فيذكر أن يعقوب « **نظم جيشا** من الأقباط يخدم فى صفوف الفرنسيين ، وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة »[١٣] ، وأن كليبر « **أذن** بإنشاء القوة القبطية » . ويؤثر الدكتور لويس عوض ألا يرجح أن يكون يعقوب هو الذى أنشأ الفرقة القبطية ، فيقول إن كليبر عين يعقوب « قائدا للفيلق القبطى **الذى شكّل فى مصر** ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك والأتراك »[١٤] .

غير أن معاصرى الحملة من المؤرخين يذهبون مذهبا آخر . فيقول ريجو ( نقلا عن بعض وثائق الحملة ومعاصريها ) إنه بعد انتصار كليبر على الأتراك فى موقعة عين شمس « كان لديه ١٥ ألف ضابط وجندى على استعداد لخوض معركة أخرى فورا ... وكان كليبر **يتأهب لكى يضم اليهم قوات إضافية : فرقة من الأقباط وأخرى من اليونانيين** »[١٥] .

ويؤيد الجبرتى ذلك بالضبط فى حديثه عن حوادث تلك الأيام نفسها ( أهرم ١٢١٥ : مايو - يونيو ١٨٠٠ ) « **طلبوا عسكرا من القبط** فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبابهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر ( أى القاهرة ) **وأضافوهم** إلى العسكر » [١٦] .

وكذلك ذكر الجنرال رينييه (Reynier) ، وهو أحد قواد الحملة الفارزين ، أن كليبر بعد نقض اتفاقية العريش كون فرقة من اليونانيين ( الأروام ) بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ جندى ( أى ما يقرب من عدد جنود الفيلق القبطى ) . وسجل معاصرو كليبر أيضا أنه فى صبيحة يوم مصرعه ذهب إلى جزيرة الروضة لكى يتفقد القوات اليونانية [١٧] .

ومما يؤكد أن تجنيد أبناء طوائف الأقليات المختلفة فى مصر كان سياسة فرنسية بحتة ما حدث عندما بدأت المناوشات بين الفرنسيين والعثمانيين عقب صلح العريش مما انتهى بنقضه . وقد ذكر الجبرتى من ذلك أن العثمانيين أرسلوا بعد الصلح بعض المراكب إلى « ثغر اسكندرية » لاستئناف العلاقات التجارية مع مصر فى حراسة بعض السفن الحربية . ولكن الفرنسيين « استولوا على الجميع وأخذوا مدافعهم وسلاحهم وحبسوا القباطين وأعيان التجار **وأخذوا الملاحين والمنسبين من البحرية والنصارى الاروام وهم عدة وافرة وأعطوهم سلاحا وزيوهم بزيهم وأضافوهم إلى عسكرهم** وأرسلوهم الى مصر ( أى القاهرة ) » . بل ان بونابرت نفسه عندما قاد حملته على مصر كان فى جعبته مشروع لتجنيد عشرين ألف رجل من أقليات الولايات العثمانية التى يفتحها .

ومن هنا فالأقرب إلى المنطق أن تكوين فرقة عسكرية من شباب الأقباط كان من خطط المستعمرين الفرنسيين وأن يعقوب كان أداتهم



المنفذة فى ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن خطة الفرنسيين كان لها فى نفس يعقوب صدى طيب ، وأنها وجدت منه تجاوبا متحمسا . فنحن لانتسى له سابقة اهتمام بالأمور القتالية منذ صباه وميله الشخصى إلى الفروسية والنزال . ونحن نذكر له ما اصطنعه فى مقر إقامته بالقاهرة من وسائل التحصين إبان ثورة القاهرة الأولى ، ثم اشتراكه فى الحرب مع قوات ديسيه التى كان يصحبها فى زحفها بالصعيد ، وكذلك ما اتخذه من إجراءات وما كان له من إسهامات فى أيام ثورة القاهرة الثانية . أى أن الفرنسيين بخطتهم الاستعمارية ويعقوب بأحلامه وتطلعاته التقيا على إرادة واحدة تجسدت فى إنجاز واحد ، هو تكوين الفيلق القبطى .

وعلى ذلك فمن المبالغة أن نفترض أن يعقوب هو الذى فكر وحده فى إنشاء الفيلق القبطى ، ثم نجعل من ذلك الفرض مسلمة نبنى عليها موقفا ليعقوب لاسند له من دليل ، فنقول كما قال الأستاذ شفيق غربال « إن من أسباب تأييد يعقوب للحكم الفرنسى أنه أتاح له إنشاء قوة حربية مصرية مدربة على النظم العسكرية الغربية ، وإن وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسى يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية ... من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة ( أى يتزعم حركة استقلالها ) إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا » . ومن الغريب أن يذهب مؤرخ عظيم كشفيق غربال فى التصور إلى ماهو أبعد من هذا ، فيعقد مقارنة بين يعقوب وعمر مكرم قائلا إن يعقوب كان « يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ، والذى قد يصل سريعا لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر .. هذا الفرق بين الأداه التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر ، ليس فى الواقع إلا مظهرا لفروق أعمق . إذ ماحاجة ... نقيب الأشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان .... أما يعقوب فله شأن آخر ، إذ أنه

لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد ... أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك ، وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية ، فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية ... »[١٨] .

استقر يعقوب فى القاهرة على رأس الفيلق القبطى . ويبدو أنه كان لهذا الموقف الغريب والمضى فى تأييد المستعمر وخططه إلى هذا المدى أسوأ الاثر فى نفوس المصريين . ولعل فى عبارة مؤرخنا الجبرتى التى سجل بها هذا الحدث ، وما تحفل به من امتعاض ومرارة ، ما يعكس مشاعر الناس إزاءه . قال الجبرتى من حوادث عام ١٢١٥ – « إن يعقوب القبطى لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبطة ( أى قائدا لهم ) جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقُبع يلبسونه على رؤسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيّرهم عسكره وعزوته ، وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام .

وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية . وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر ( أى القاهرة ) الذى رمّه الفرنساوية . ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية[١٩]". وهكذا أرضى يعقوب فى نفسه



أحلام الفارس القديم : فرقة من الجند وقلعة محصنة وحرس خاص ورسوم وشارات ولقب عسكرى .

# فى عهد منو

لم ينعم كليبر طويلا بانتصاره على العثمانيين وبنجاحه فى إخماد ثورة القاهرة الثانية وفى تحقيق الاستقرار بالصعيد . فمالبث أن لقى مصرعه على يد سليمان الحلبى فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ . تكهرب الجو فى القاهرة والأقاليم مرة أخرى ، وتولى قيادة الحملة جاك منو ( Menou ) وبدأ التاريخ يخط أولى سطور الفصل الختامى فى حياة الحملة الفرنسية وجيش الشرق . ومما يلفت النظر فى هذه المناسبة ويوضح وثيق الصلة بين الفرنسيين والطوائف المسيحية فى مصر أن جنازة قائدهم المقتول لم يشترك فيها من المصريين غير ممثلى هذه الطوائف . ولنقرأ ماقاله شاهد العيان المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى من وصف هذه الجنازة : « ولما فرغوا من ذلك ( أى من محاكمة سليمان الحلبى وزملائه ) اشتغلوا بأمر سارى عسكرهم المقتول ، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكر ، ونصبوا مكانه عبد الله جاك منو ، ونادوا بالكنس والرش ( استعدادا للجنازة ) فلما أصبحوا اجتمع عسكرهم وأكابرهم **وطائفة عينها القبط والشوام** ( أى يمثلونهم ) وخرجوا بموكب مشهده ركبانا ومشاة وقد وضعوه فى صندوق من رصاص ... »

استمر يعقوب فى عهد منو يؤدى مهمته فى خدمة السلطات



الفرنسية ، ويتفانى هو وأعوانه فى أداء هذا العمل على حساب أمن المصريين وسلامتهم وحرياتهم وكرامتهم وحرمة بيوتهم وأموالهم . واستقراء الوقائع فى هذا الصدد وإنعام النظر فى ملابساتها وردود فعلها يبين أن موقف هؤلاء « المتعاونين » كان نابعا من أكثر من مجرد الشعور بالتعصب الطائفى . لقد غلبت عليهم الانتهازية الجشعة والأثرة العمياء التى تجرد النفوس من المشاعر الإنسانية الطيبة ، واستغلال الظروف غير الطبيعية التى دفعت بهم ، وهم فئة قليلة مستضعفة من الناس ، فجأة الى مكان الصدارة والنفوذ والمنعة ، بعد أن عانوا طويلا "من امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ، ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم"، كما يقول شفيق غربال (٢٠) .

ويحدثنا الجبرتى عن كثير مما شاهده فى تلك الأيام العصيبة فيقول « اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصرانى قبطى يسمى شكر الله ... فنزل بالناس منه مالا يوصف .. فكان يدخل إلى دار أى شخص لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله ببولاق فإنه كان يحبس الرجال مع النساء .... وينوع عليهم العذاب (٢١) .

ويروى الجبرتى كذلك فى حديثه عن مشاركة يعقوب ورجاله فى تحصين القاهرة فى وجه العثمانيين عندما اقتربوا منها للمرة الثانية ( من حوادث شهر المحرم ١٢١٦ : مايو ١٨٠١ ) أنه « .... توكل رجل قبطى يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطى .... » . ويبدو أن تجاوزات أعوان يعقوب بلغت من التطرف حدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تتدخل لوقفها . فعندما أنهى الناس

شكواهم إلى « بلبار » (Belliard) قائمقام ( أى نائب ) منو أمر بالقبض على ذلك القبطى « وحبسه بالقلعة ... » [٢٢] .

وكان من أعوان يعقوب فى قهر المصريين بعض المسلمين . فيذكر الجبرتى من حوادث ١٨ ربيع الثانى ١٢١٦ ( أول سبتمبر ١٨٠١ ) أن السلطات العثمانية التى كانت احتلت القاهرة بعد أن انسحب منو إلى الاسكندرية قد اعتقلت « مصطفى الطاراتى » وحصّلت منه « خمسة عشر ألف ريال .... ومصطفى هذا كان كلارجيا ( أى أمين مخزن الأغذية ) عند قائد أغا ( أى رئيس الأنكشارية ) . فلما خرج الأمراء ( أى المماليك بعد دخول الفرنسيين ) تقيد مقدما عند بونابرته ثم عند كليبر . فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر الفردة وجمع المال تقيد بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم ، فكان يجلس على الكرسى وقت القائلة ( الظهيرة ) ويأمر أعوانه بإحضار أفراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين يديه ويطالبه بإحضار ما فرض عليه مما لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصيله فيعتذر بخلو يده ويترجى إمهاله فيزجره ويسبه ويأمر بضربه .... ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهب إلى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيس ويهجمون على حريمه ... » [٢٣] . وقد تم إعدام مصطفى هذا فى ميدان باب الشعرية بعد ذلك بأقل من شهرين .

هذا وقد كافأ منو المعلم ( الكولونيل ) يعقوب على خدماته المخلصة للفرنسيين ، وبخاصة فى تلك الأيام المضطربة الحافلة بالأحداث بمنحه رتبة « جنرال » ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ .



# قصيدة غير عصماء

غير أن يعقوب أصيب فى عهد منو بصدمة عاطفية هزت أعماقه ، فقد بلغه — متأخرا — خبر مصرع صديقه وحبيبه الوسيم الجنرال ديسيه . كان ديسيه قد غادر مصر فى عهد كليبر بدعوة من بونابرت لينضم اليه فى حربه مع النمسويين ، فقتل فى معركة مارنجو (Marengo) الشهيرة التى دارت عند إحدى القرى الإيطالية يوم ١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، وهو نفسه يوم مصرع كليبر . ويقول جاستون حمصى إن المعلم يعقوب حزن لوفاة صديقه ديسيه — وكان فى الثانية والثلاثين — حزنا شديدا وكتب إلى الجنرال منو يعرض عليه دفع ثلث تكاليف بناء النصب المزمع إقامته لتخليد ذكرى « الرجل الذى وهبه قلبه » . وكانت سلطات الحملة قد فتحت اكتتابا لإقامة هذا النصب بين جنودها [٢٤] .

وأراد يعقوب كذلك أن يعبر للمسئولين الفرنسيين عن حزنه بطريقة مبتكرة ، وذلك بأن يرسل مرثية شعرية إلى حكومة باريس ! فكلف صديقه الأب روفائيل أن ينظم له قصيدة بما أراد ، فنظمها هذا فى خمسة وثلاثين بيتا ، وأرسلها يعقوب بالفعل إلى فرنسا . ولابد لنا هنا من

وقفة متأنية نتأمل فيها هذا العمل ودلالاته . ولكن ينبغي قبل التعرض لمضمون هذه القصيدة وبنائها أن يتعرف معنا القارىء على ناظمها ، فمن هو روفائيل ؟

الأب روفائيل أو رفاييل ( ١٧٥٨ – ١٨٣١ ) اسمه الأصلي أنطون زخورة راهبة ، وهو من أسرة سورية معروفة تنتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك . ولد في مصر وفيها تعلم ثم أكمل تعليمه الديني في إيطاليا وأتقن عدة لغات وتنقل بين مصر وسوريا وإيطاليا حيث عمل بالترجمة ، ثم استقر في مصر حتى وصلت الحملة الفرنسية فالتحق بالعمل فيها مترجما ، وكان الشرقي الوحيد الذي عينه الفرنسيون عضوا بالمجمع العلمي ( في لجنة الفنون والآداب ) . وهناك أسهم في إعداد البحوث وترجمة الوثائق التي ساعدت علماء المجمع في إعداد كتاب « وصف مصر ».وتولى روفائيل كذلك مهمة الترجمة الفورية في كثير من جلسات ديوان القاهرة ، كما ترجم عددا من المراسيم والمنشورات والمطبوعات التي أصدرتها الحملة ، ومنها محاضر محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر ، وكتيب عن مرض الجدري أصدره « ديجنت » (Désgenettes) كبير أطباء الحملة . وقد ارتحل روفائيل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم عاد الى مصر في عهد محمد علي وعمل بالترجمة لحكومته ، كما أسهم في إنشاء مطبعة بولاق ، وترجم من الإيطالية كتاب « الأمير » لمكيافيللي الذي كان أول ما أخرجته مطبعة بولاق من كتب .

وإلى جانب الإشارات القليلة المتناثرة عن روفائيل في مراجع الحملة وعهد محمد علي ، وفي كتاب الجبرتي ، فقد أحطنا بتفصيلات حياته من بعض مقالات كتبها بالعربية والفرنسية اثنان من أبناء قومه هما الخوري قسطنطين الباشا ، وشارل بشاتلي ، ومنهما وحدهما عرفنا أن روفائيل حاول قرض الشعر إلى جانب عمله في الترجمة ، وأنه هو الذي نظم



قصيدة يعقوب . ولكنهما اكتفيا بالاشارة إلى ذلك دون أن ينشرا بيتا واحدا منها . وقد عثرنا على النسخة الأصلية للقصيدة التي بعث بها يعقوب ومعها ترجمتها الفرنسية في بعض محفوظات وزارة الحربية بباريس . ومن فحص مخطوط القصيدة وإنعام النظر في مبناها ومعناها نستطيع أن نخرج ببعض الدلالات المهمة عن ناظمها ومرسلها .

القصيدة مقدمة على شكل لوحة جميلة ، فهي على ورق جيد شبه صقيل يمتاز عن الورق المعتاد في ذلك العهد.وقد استخدم كاتبها وواضح أنه خطاط محترف ـــ خط النسخ الجميل في كتابة النص ، مع بعض عبارات في المقدمة بخط الثلث . ورأس هذه اللوحة مزين بالزخارف الدقيقة الملونة والمذهبة ، وكذلك استخدمت الوحدات الزخرفية الملونة في الفصل بين أشطر الأبيات.ويعلو اللوحة تكوين زخرفي تليه عبارة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهي كما نعلم جزء من الآية القرآنية « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وتلي ذلك مقدمة نثرية مسجوعة تقول بما يشبه أن يكون أسلوبا إسلاميا تقليديا « الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنغام اللغات الدوامس ، وكاشف الغطاء الدلامس ، عن الآثار الدوارس . نحمده حمدا وشكرا لائقا بإله مبدع وخالق ، بارى المبروّات والخلائق ، مكون الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، مميز النفائس من الخسائس ، فلا إلّه غيره ، ولاخير إلا خيره ، وهو المالك والسايس ، آمين » . وواضح من هذه المقدمة افتعال صاحبها في استخدام الألفاظ التي تناسب سجعه حتى ولو لم تناسب المعنى ، وغموض بعض العبارات وركاكتها ، والخطأ في اشتقاق بعض الألفاظ .

ثم يمهد الكاتب لأبيات القصيدة بهذا المدخل الذي يقول بالنص : « وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به نتنحب وفات عزيزه ، الجنرال

داسه ، صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ، فيقول « . ولايخفى على القارىء ما يتضمنه هذا التمهيد على قصره من أخطاء فى تقسيم العبارات وإرجاع الضمائر ، بل وهجاء الألفاظ ( شكل ٣ ) .

أما أبيات القصيدة التى لم تنشر من قبل ، والتى لا تخلو من طرافة ، فهذه مختارات منها بنصها :

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشر
حبيب وقد ذاع صيته أبدا
بطل وقد عرف فى سائر القطر
فتلألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسر
وقد فاز بها على المماليك إجمالا
ظافرا بأرقابهم نصرا بالعز والقهر
وأخضع تشاخ جماعة البربر
مروضا أخلاق أهل اقليمنا المصر

○ ○ ○

فآها على ناصرى داسه ووا اسفى
على اصطحابى به لو قدر القدر
فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجوا
كما رافقته قبلا بصعيدنا المصرى
فموتى عنه فداء كان يغنيه
عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر



ولم يزل بفكرى مخلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى

○ ○ ○

جد على بلحظ العين مترأفا
وانظر الى بأسنى برقة النظر
فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته
فغدت حياتنا لا تخلوا من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما
وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر

○ ○ ○

ومحبتنا للفرنسيس فلابد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر

ومن حيث الشكل فان هذه الابيات المتهالكة البناء الواهية التركيب الحافلة بأخطاء النحو والصرف والهجاء قبل أخطاء العروض ، تدل على أن ناظمها لم يكن يحظى بأية موهبة شعرية ، وأن محاولته قرض الشعر باءت بالفشل الذريع،كما تدل على أن لغته العربية نفسها كانت ضعيفة متهافتة ، الأمر الذى تؤكده ترجماته فى المنشورات وغيرها من وثائق الحملة ، ثم فى كتاب مكيافيللى الذى ترجمه محمد على والذى قال عنه جاك تاجر انه « حرص فيه على حفظ المعانى ولو انه استعمل العبارات الركيكة التى كان استعمالها شائعا فى هذه الفترة » (٢٥) .

أما مضمون الأبيات وهو الذى أوحى به يعقوب لناظمها ، فإنه يحوى عددا من المعانى ذات الدلالات المهمة على أفكار يعقوب وموقفه من الحملة ، والمعانى التى تتصل بعلاقته الخاصة بصديقه الذى يرثيه . إننا نستطيع بالرغم من العيوب اللغوية والشعرية للقصيدة أن نستخلص منها ما يلى :

— يشيد المعلم يعقوب ببطولة ديسيه « فاتح بلادنا بناحية قبلى » ويصفه بأنه صنديد مجاهد شجاع عاقل فطن .

— يذكر بالشماتة انتصار ديسيه على المماليك وإذلاله للهمج « أخضع تشاغ جماعة البربر » وكلمة « بربر » (Berber) هنا تعنى الهمج ، وهى لاشك من أثر معرفة روفائيل للفرنسية . ولعل يعقوب يقصد بها سكان الصعيد بعامة الذين قاوموا زحف ديسيه ، أو لعله على أحسن الفروض يقصد جماعات البدو الذين انضموا إلى قوات المماليك فى مقاومة الغزو الفرنسى . ويتكرر ذكر البربر فى القصيدة ويوصفون بأنهم « أعداء الله والبشر » .

— يقول إن المصريين كانوا قديما شعبا عظيما ، ثم غدوا ( تحت الحكم الإسلامى بالطبع ) عبيدا للرق والأسر ، وأن الفرنسيين هم الذين خلصوهم من الذل والعبودية .

— يصور سوء حال المصريين بعد رحيل ديسيه . ويخاطب الفرنسيين فى شخص صديقه الراحل معربا عن خشيته من أن تعود مصر إلى سابق عهدها من الذل والقهر إذا ما تم الصلح ( وكان وقتئذ متوقعا ) وأخلاها الفرنسيون . ويناشدهم ألا يدعوا مصر « لسابق القهر » وألا يتركوها لحاكم « يسوس بالقسر » .

— لم ينس يعقوب كذلك أن يجامل بونابرت فيشيد بانتصاراته « وماخصه الله من العظمات والقدر » .

— يؤكد أكثر من مرة حب قومه للفرنسيين « لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر » .

أما على المستوى الشخصى فهناك ملمح لا تخطئه العين فى أبيات هذه القصيدة . إننا نستطيع أن نستشف مما تتضمنه من عواطف مسرفة أن العلاقة بين يعقوب وصاحبه كانت شيئا أكبر من مجرد الصداقة أو الولاء . إن حزن يعقوب على ديسيه يكاد يكون حزن عاشق ولهان ،



٩٥ المعلم يعقوب ( الهيئة العامة لقصور الثقافة ) .

شكل ( ٣ ) رثاء يعقوب للجنرال ديسيه ( الشعر للأب روفائيل )

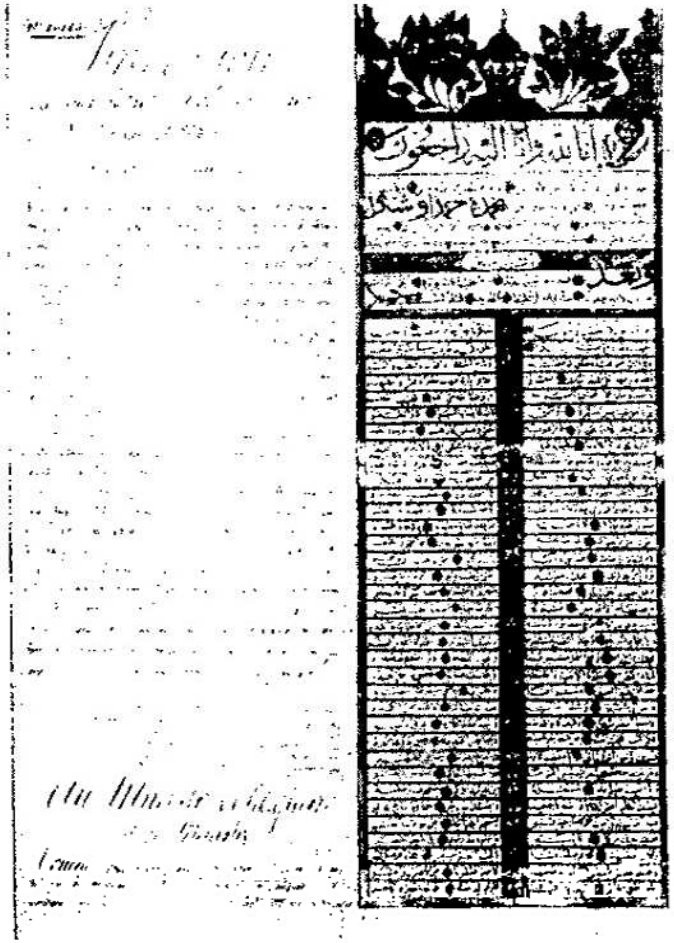

فهو يكرر فى ذكره كلمة الحب ومشتقاتها ، وهو يتمنى أن لو كان قد مات فداء له ( فى معركة مارنجو ) ويؤكد أن فقيده لم يزل بفكره "مخلدا أبدا حتى الى خروج الروح" من صدره . ثم هو يناجيه بقوله « جد على بلحظ العين » ، ويناشده أن يرأف به وان يمنحه نظرة تضيء كسنا البرق . ويصور انتقاله الى الملكوت الاعلى تصويرا رومانسيا . يذكر فيه "جمال نفسه" والنور الذى يحيط بروحه ويضيء على العالم كالقمر ، « متزينا ببهاء أشعة الحب للبشر » .

من الواضح إذن أن العلاقة التى كانت تربط يعقوب بديسيه علاقة حميمة جدا . فقد صحبه صحبة كاملة طيلة أكثر من عام حتى تعلق به تعلقا شديدا كما يقول مؤرخه جاستون حمصى . ويروى الجنرال بليار فى مذكراته ، وكان من ضباط ديسيه فى حملة الصعيد ، الكثير عن الأمسيات الطويلة التى كان يرتبها ديسيه فى منزله بأسيوط ويحضرها يعقوب مع ضباط الحملة ، وكذلك الأمسيات الباذخة التى كان يرتبها يعقوب فى منزله لديسيه وضباطه . وكانت السهرات تمتد فى هذه الأمسيات وتلك ، والأحاديث تدور حول شتى الموضوعات (٢٦) .

ومهما يكن من أمر فلا نستطيع أن نؤثم هذه العلاقة الشخصية أو أن نجزم بشيء عن مدى ما وصلت إليه بين الرجلين . كل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنها حفرت فى نفس يعقوب خطا عميقا . وكتاب الجبرتى على أية حال حفل بذكر علاقات حميمة كثيرة قامت بين بعض المصريين وبعض الفرنسيين أيام الحملة ، وفى مقدمتها ما ذكره عن علاقة صديقه الأديب المعروف الشيخ اسماعيل الخشاب بشاب من ضباط الجيش الفرنسى .



# نهاية الحملة .. والرحيل

اقتربت أيام الحملة من نهايتها ، وتهاوت أحلام منو الاستعمارية فى أن يجعل من مصر ، لا مجرد قطر احتله الفرنسيون بالغزو ، وإنما قطرا تم ضمه الى فرنسا (Pays annexé) ، هذا بالرغم من تظاهره باعتناق الإسلام الذى لم يستطع أن يقنع به أحدا من المصريين . وذلك كما تهاوت من قبل أحلام بونابرت فى أن يؤسس فى هذا الجزء من العالم ملكا جديدا يقوم على أسس تمزج بين الحضارة الإسلامية ومبادىء الثورة الفرنسية ... الخ . وغادر منو القاهرة الى جبهة الاسكندرية ، بينما بقى نائبه ( قائمقامه ) بليار يدافع عن العاصمة ، ويحاول جهده أن يحفظ ماء وجه الحملة ، قبل الجلاء الذى لم يعد منه مفر ، الى آخر قطرة .

واصل الجيش العثمانى زحفه نحو القاهرة ، وواصل الجيش الإنجليزى كذلك زحفه من رشيد ، تاركا منو محاصرا فى الاسكندرية . وزاد من تحرج موقف الفرنسيين انتشار الطاعون وفتكه بعدد كبير من الأهالى والجنود . ومن ثم قرر بليار مع سائر قواده عدم انتظار تعليمات منو ، والمضى فى مفاوضة العثمانيين والإنجليز فورا لعقد اتفاق على أساس الجلاء الكامل عن مصر . وهكذا وقع بليار اتفاقية لم تختلف موادها كثيرا عن

مواد اتفاقية العريش التى وقعت من قبل فى عهد كليبر ثم نقضت . وكان ذلك فى أواخر يونيو ١٨٠١ .

ولم يعلم منو بتوقيع نائبه بليار لهذه الاتفاقية إلا مؤخرا . وقد ثار عندما اطلع على شروطها ، ولكنه لم يلبث أن وقع هو نفسه فى آخر أغسطس اتفاقية مماثلة للجلاء عن الاسكندرية .

وقد تضمنت اتفاقية بليار للجلاء مادتين تهمان سكان القاهرة بوجه خاص ، هما المادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة ، فرأى بليار إذاعتهما وحدهما فى منشور خاص بالعربية والفرنسية موجه منه الى « جميع أهالى خروسة مصر ( أى القاهرة ) وقدم بليار لنص هاتين المادتين بعبارة قال فيها إن إرادة الله تعالى قضت « بالصلح ما بين عساكر الفرنساوية وعساكر الإنجليز وعساكر العثمالّية .. » ثم استدرك يطمئن الاهالى الى أن هذا الصلح لايعنى المساس بأشخاصهم أو عقائدهم أو أملاكهم . وأكد لهم أن « رءوس عساكر الثلاثة جيوش قد أشرطوا بهذا » . أما نص المادتين فهو كما جاء بالمنشور :

**الشرط الثانى عشر** : كل واحد من أهالى مصر المخروسة من كل ملة كانت الذى يريد يسافر مع الفرنساوية يكون مطلوق الإرادة وبعد سفره كامل ما تبقى أعياله ومصالحه لم أحدا يعارضهم ( فى النص الفرنسى : لا تصادر ممتلكاتهم ) .

**الشرط الثالث عشر** : لا أحدا من أهالى مصر المخروسة من كل ملة كانت لا يكون قلقا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه ، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنسى بمدة إقامة الجمهور بمصر . ولكن الواجب يطيعون الشريعة ( فى النص الفرنسى قوانين البلاد ) .

وختم بليار هذا المنشور بعبارة وجهها إلى « أهالى مصر وأقاليمها جميع الملل » قال فيها إن الفرنسيين لم يكفوا حتى اللحظة الأخيرة عن العمل



على راحة الاهالى وأمنهم ، وعلى ذلك « فيلزم أنتم ايضا تسلكوا فى الطريق المستقيمة وتفتكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الذى يفعل كل شىء والسلام » . وبناء على ذلك فقد أمن على نفسه وماله وعياله كل من تعاون مع الفرنسيين فى أثناء الاحتلال ، واستعد من يريد السفر منهم مع الحملة المنسحبة إلى فرنسا وفى مقدمة هؤلاء وأولئك المعلم يعقوب ( شكل ٤ ) .

بعد أيام قليلة من صدور هذا المنشور أرسل ابراهيم بك الذى كان يصحب القوات العثمانية الزاحفة إلى القاهرة « أمانا لأكابر القبط فخرجوا ... وسلموا ورجعوا الى دورهم » . أما يعقوب الذى كان يشترك بفيلقه فى حماية ظهر قوات بليار بالقاهرة ، فانه خرج بمتاعه .. وعدى الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام ( بليار ) وبكوا وولولوا وترجوه فى إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصانع وغير ذلك . فوعدهم أنه يرسل الى يعقوب أنه لا يقهر ( أى لا يرغم ) من لا يريد الذهاب والسفر معه [٢٧] .

واستطرد الجبرتى إلى ذكر الآخرين الذين فضلوا الهجرة مع الفرنسيين فقال « خرج المسافرون مع الفرنساوية الى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وبعض مسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والأروام مثل ينى وبرطلمين ( بارتلمى الذى كانت العامة تطلق عليه فرط الرمان ) ويوسف الحموى وعبد العال الأغا أيضا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله » . وكان عبد العال هذا أغا الانكشارية ، أى قائدهم ، وقد أذاق القاهريين الكثير من بطشه وجبروته . وبعد نحو شهر من خروج هؤلاء المهاجرين من

القاهرة كتب الجبرتى يقول إنه « حضرت جماعة من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا الى مصر ( القاهرة ) » (٢٨) .

ومؤدى كلام الجبرتى فى الفقرات السابقة أن معظم عسكر الفيلق القبطى رفضوا السفر مع يعقوب إلى فرنسا ، وأن ذويهم أقاموا مناحة أمام نائب القائد العام حتى لا يرغم أحد من أبنائهم على السفر مع قائدهم السابق ، وأن من كانوا قد صحبوا العسكر المنسحبين ( ربما لتأمين الطريق ) قد عادوا بإرادتهم إلى العاصمة مرة أخرى .

ولا شك أنه مما ساعد على اطمئنان أبناء الأقليات ، وبخاصة الأقباط ، إلى البقاء فى « مصر المحروسة » مفضلين ذلك على مخاطر السفر إلى المجهول صحبة يعقوب ومن معه حرص السلطات العثمانية التى دخلت القاهرة على تكرار المناداة بالأمان وتأكيد القول بالفعل ، فى محاولة دائبة لاكتساب تأييد ساكنى مصر جميعا ، والحيلولة دون حدوث أية اضطرابات طائفية تخل بالأمن ، مما أشاع جوا من التسامح والتجاوز عن الماضى والشعور بضرورة بدء صفحة جديدة فى العلاقات بين مختلف طوائف السكان . فبعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الجلاء عن القاهرة « نودى بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإنهم من رعايا السلطان والماضى لا يعاد ..... » (٢٩) .

ولم يقتصر الأمر على القاهرة بل امتدت هذه الحملة الدعائية الى الأقاليم ، مع التماس العذر لمن تعاون مع الفرنسيين . ويقول الجبرتى : « كتبت فرمانات ( أى منشورات ) وأرسلت إلى بلاد الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة وعدم التعرض لهم وفى ضمنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم » (٣٠) .



شكل ( ٤ ) اتفاقية الجلاء عن مصر

LE GENERAL DE DIVISION

# BELLIARD,

Commandant le Kaire et les Troupes de l'Arrondissement,

*Aux Habitans du Kaire, de toutes les Religions.*

من حضرة الكريم المفضال سليمان قبطان مصر حالا وسنى عساكر المحروسة حاليا الى جميع اهالى محروسة مصر ●

PAR la volonté de Dieu tout puissant, la paix vient de se conclure entre les armées française, anglaise et ottomane ; mais par cet arrangement vos personnes, vos religions, et vos propriétés ne cesseront d'être respectées : les trois puissances en prennent l'engagement formel, comme vous pouvez en juger par les deux articles du traité de paix transcrits ci-après :

ART. XII.

« Tout habitant de l'Egypte, de quelque » nation qu'il soit, qui voudra suivre l'armée » française, sera libre de le faire, sans qu'après » son départ sa famille soit inquiétée, ni ses » biens confisqués. »

ART. XIII.

« Aucun habitant de l'Egypte, de quelque » religion qu'il soit, ne pourra être inquiété » ni dans sa personne, ni dans ses biens, pour » les liaisons qu'il aurait eues avec les Fran- » çais pendant leur occupation de l'Egypte, » pourvu qu'ils se conforment aux loix du » pays. »

Habitans du Kaire et de l'Egypte, de toutes les religions, vous voyez que jusqu'au dernier moment les Français n'ont cessé de veiller à votre repos et à votre sureté : montrez-vous dignes de tout ce que nous avons fait pour vous, en ne vous écartant pas de la bonne voie ; songez toujours que Dieu est puissant, que c'est lui qui dirige toutes choses.

*Le Général de Division,*

*Signé* BELLIARD.

A LA CITADELLE DU KAIRE, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE.

وأكثر من هذا فان العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدى الفرنسيين حرصوا على ان يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفهم فى تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففى شهر جمادى الأولى ١٢١٦ ( سبتمبر ١٨٠١ ) « قرئت فرمانات ( أى منشورات ) صحبة عثمان كتخدا ( نائب الوالى العثمانى ) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهرى وواصف وملطى ، ومقدمهم فى تحرير الأموال الميرية ... » [٣١] .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطىء رشيد لتقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد فى أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتمصرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء فى مصر لكى تنتفع السلطات العثمانية التى استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية ( غير مستبعدة ) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته فى أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهى السفينة



وأكثر من هذا فان العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدى الفرنسيين حرصوا على ان يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفهم فى تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففى شهر جمادى الأولى ١٢١٦ ( سبتمبر ١٨٠١ ) « قرئت فرمانات ( أى منشورات ) صحبة عثمان كتخدا ( نائب الوالى العثمانى ) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهرى وواصف وملطى ، ومقدمهم فى تحرير الأموال الميرية ... » [٣١] .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطىء رشيد لتقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد فى أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتمصرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء فى مصر لكى تنتفع السلطات العثمانية التى استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية ( غير مستبعدة ) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته فى أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهى السفينة

نفسها التى أقلت الجنرال بليار وعددا من جنوده وضباطه . وأبحرت پالاس بقيادة القبطان جوزيف إدموندس (J. Edmonds) فى ١٠ أغسطس متجهة أولا الى قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى . وبعد أن أقلعت السفينة بيومين أصيب يعقوب بالحمى ، وما لبث ان اشتد عليه المرض ومات فى عرض البحر ، بعد أربعة أيام ، فى ١٦ أغسطس . وقد كانت آخر كلماته وهو يحتضر للجنرال بليار ان يدفن مع صديقه ديسيه فى قبر واحد !

ولم يلق ربان السفينة بجثة يعقوب الى البحر كالمعتاد فى مثل هذه الحالة ، بل استمع الى رجاء من معه فاحتفظ بالجثة فى دن من الخمر حتى وصلت السفينة الى مرسيليا . وهناك تم دفنها فى جبانة المدينة .



# قصة مشروع الاستقلال

لم تنته حكاية المعلم يعقوب بإبحاره من الشواطىء المصرية ولا بوفاته ، وانما على العكس بدأت بذلك قصة من أغرب القصص التى ذيل بها تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر ، والتى شغلت لغرابتها عددا من المؤرخين ، ذهبوا فى تأويلها والتعليق عليها مذاهب شتى تأرجحت بها بين الحقيقة والأسطورة . ويشارك يعقوب بطولة هذه القصة مغامر أوروبى شاب اسمه تيودور لاسكاريس (T. Lascaris) وهو شخصية غامضة مهتزة ، ظهر على مسرح الأحداث مع يعقوب منذ أقلعت السفينة پالاس بعد وفاة « المعلم » فمن هو لاسكاريس هذا ؟

ولد لاسكاريس عام ١٧٧٤ من أسرة إيطالية نبيلة ( أى أنه كان وقت الرحيل عن مصر فى السابعة والعشرين من عمره ) ، وانخرط هو وأخ له فى سلك فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، التى غزاها بونابرت وهو فى طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨ ، وانتزعها من أيديهم وقضى على سطوتهم ( شكل ٥ ) . وهؤلاء الفرسان هم الذين أشار اليهم بونابرت فى منشوره العربى الأول إلى المصريين بكلمة « الكواللرية » وهى تعريب للكلمة الايطالية (Cavaleri) بمعنى

شكل ( ٥ ) الفارس لاسكاريس

فرسان ، فقال بالنص « إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون ، وإثباتا لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرا ( كذا ) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دايما النصارا ( كذا ) على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللييريه الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .. » ( شكل ٦ ) . وتقول بعض مراجع الحملة ، بل ويقول بونابرت نفسه فى مراسلاته،إن الأخوين الفارسين كانا مصابين بلون من الهوس وشذوذ الأهواء وإن كان بطلنا أخف حالة من أخيه الذى وصل به الأمر إلى حد الجنون .

كان تيودور لاسكاريس ذا عقل مغرق فى الخيال ، وقد صحب حملة بونابرت الى مصر ، وهناك تقلد بعض المناصب الإدارية فى خدمة حكومة الحملة . وأطلق لاسكاريس لخياله العنان فأخذ يقترح على سلطات الحملة ــ وبخاصة أيام منو ــ عدة مشروعات غير عملية ولا مدروسة ، مثل إقامة عاصمة جديدة لمصر عند تفرع النيل برأس الدلتا يطلق عليها اسم « منو بوليس » تخليدا لاسم الجنرال منو ! ومثل تمكينه من ضبط مياه النيل واستزراع الصحراء .. الخ . وقد قدم لإحدى رسائله إلى عبد الله منو التى ذكر فيها بعض هذه المشروعات بديباجة تلقى الضوء على تكوينه العقلى وأسلوب تفكيره . قال لاسكاريس لمنو « إن القدر يهيىء لكل إنسان فى هذا العالم الطريق الذى يسلكه . فهناك من هيأ له القدر أن يكون من الغزاه الفاتحين ، وهناك من قدر له أن يكون مجرد صانع أحذية . ومن الناس من قدر له أن يكون من مؤسسى الدول والمشرعين ، بينما قدر لآخرين أن يقيموا الأسر وينجبوا الأطفال .. الخ » أما هو فقد قدر له أن يكون « من أصحاب المشروعات » . ويقول « إننى كثيرا ما ارتفع بنفسى فوق عالم الواقع لكى أخطط لمشروعاتى ، وأترك لخيالى أن يذلل كل ما قد يعترضها من عقبات . آه ما أجمل الخيال ، إنى لأجد فيه سعادتى »ولكن منو لم يأخذ مشروعات لاسكاريس يوما مأخذ الجد ، بل كان كثيرا ما يخلو له ان يمازحه ويسخر من خيالاته ويعرّض بما يتلبسه من

جنون العظمة (٣٢) .

غير أنه ينبغي أن نتوقف عند مشروع واحد من مشروعات لاسكاريس الحالم ، لأنه كان محور القصة التي جرت أحداثها على سطح الفرقاطة پالاس بعد وفاة المعلم يعقوب ، ولأنه هو الذى جمع بين الرجلين منذ البداية على أرض مصر قبل مغادرتها ببضعة أشهر . لقد فكر لاسكاريس فى أن تنسلخ مصر من حكم العثمانيين وأن تتخلص كذلك من طغيان المماليك ، وذلك بمساعدة فرنسا وحمايتها . ولكن مادامت احتمالات جلاء الفرنسيين عن مصر قائمة ( كان ذلك فى عهد منو ) ، فلا سبيل إلى تحقيق ذلك الهدف إلا بأن تدعم سلطات الحملة الفيلق القبطى بحيث تكون كفته هى الراجحة فى أى قتال ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة فى البلاد من جانب العثمانيين أو المماليك . واستكمالا لمشروعه اقترح لاسكاريس أن يترك الفرنسيون عند جلائهم عن مصر ذخيرة حربية كافية ، مع قوة من الجيش تنسحب جنوبا نحو إقليم النوبة معلنة رفضها الجلاء مع سائر قوات « جيش الشرق » . وسوف يسهل على هذه القوة فتح إقليم النوبة والاستقرار به حتى تستدعى الأمور انحدارها ثانية نحو الشمال لمساندة الفيلق القبطى . والغريب أن لاسكاريس استطاع أن يقنع بالخطوط العامة لمشروعه بعض الفرنسيين ، مثل المستشرق مارسيل والجنرال ديبوى ( حاكم القاهرة ) ، هذا إلى جانب الجنرال يعقوب بالطبع (٣٣) .

ولكن الجنرال منو سخر كعادته من أحلام لاسكاريس ولم يقتنع مطلقا بمشروعه . ويقول شفيق غربال إنه حالت دون اقتناع القائد الفرنسى « قلة ثقته بالفارس وبالأقباط عامة ويعقوب خاصة » وإن كان هذا لم يمنع منو من أن يمضى فى الإفادة من جهود كل من لاسكاريس ويعقوب . وتقول وثائق الحملة إن منو ألحق لاسكاريس بالعمل مع يعقوب لكى يعاونه فى إنشاء شبكة تجسس على العثمانيين وحلفائهم تمتد



شكل ( ٦ ) منشور بونابرت الأول

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله ولد له ولا شريك فى ملكه ●

من طرف الجمهور الفرانساوى المبنى على اساس الحرية والمساواة الامير كبير العساكر ونائبه امير الجيوش الفرانساوية يعرف اهالى مصر جميعهم ان من زمان صديد المماليك الذين يتسلطوا فى البلاد المصرية يجعاملوا الفضل والاحسان حق التجارة الفرانساوية ويظلموا تجارها بانواع الظلم والتعدى فحصر الاغا عامة محبوبهم ● ومسرة من محبة جمهور الجهاد هذه الرسوم المماليك الذين جاوزوا حد الجنون الاغترار والكبر حسبما يقتضيه الانقياد الاحسن الذى يوجد فى كرة الارض كلها عاصيا ربه العالمين القادر على كل شئ قد حتم على انفسهم دوامهم ●

فاليعلم المصريين قد بلغوا لكم انى ما جئت فى هذا الجانب الا بقصد ازالة دينكم مذهبكم كذب صريح فلا تصدقوه وبلغوا المفترين انى ما قصدت اليكم الا لخلصكم من يد الظالمين وانى اعظم من المماليك لعبد الله سبحانه وتعالى واعدم عبيد صنف والقرآن العظيم ●

وبلغوا ايضا لهم ان جميع الناس مخلوقين عند الله والذى يفرقهم من مخلوقين بعضا هو العقل والفضايل والعلوم فعند رب المماليك ما العقل والفضايل والمعرفة الذى يميزهم عن الفقراء وبحبوب اليهم ويملكوا ومعظم كلما يبذروا به جهاده الدنيا ●

حيث يوجد ارض عديدة فى تصرف المماليك والجوارى للاعمل والجيل الاحسن والمساعيش الاتى فهذا حصلوهم جاهزا ●

ثم يخاطب المصريين الدوام المماليك غالبيتهم اقصد الذى يدعيها لهم الله فلك رب العالمين هو رؤفا رحيما عادل على البشر جميعه تعالى من البرج سماعتنا ان يحدثنى احساس اعمال مصر من التدخل فى المناصب السامية وص أحسنهم الاراضى المالية فالعملا والفضلا والعلما بينهم معتبرا الامور وسلطانه يصلح حسال الامة بحكمها ●

عاليها فى الاوقات المصرية كانت القدما لا مظهم والمذاهب الواسعة والعصر المختار وما ازال ذلك كله الا الشيخ وظلم المماليك ●

انهى القصاب والفلاحين والابعدية والتجار الغيورالجديد والعبيد الصالح ليكونوا لاسكم ان الفرانساويه هم ايضا مسلمين حقا حسن والحماسا لذلك قد دخلوا فى بوسبه الكبيرا وحضروا فيها حضرتى البابا الذى كان جيش دايما النصارا على عبادة الاسلام لم تصدوا حربوا مالطه وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعموا ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين ومع ذلك الفرانساويه فى كل وقت من الاوقات صاروا الحسن الاصدقايى لجميع السلطان العثمانى واعدا اعدايه اداهم الله مايحبه ويطلوب المماليك استمروا من الطاعة السلطانى غير معتقدين الامر ضد طاعوا امثالا لا تطمع انفسهم ●

طوبى لم العاقبى مصر الذين يتحدوا معنا بلا تاخير نصلح عالهم ويحل مراسيهم طوبى ايضا للذين يتحدوا فى مساعدتهم غير مبالين للحسد من الغرضى للمعارضين هذا يعتبروا بالاكثر يصيروا الينا بحقل قلب ●

لحن الويل ثم الويل الذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم فى الحرب عليهما فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم اثر ●

● المادة الاولى ●

جميع العربى الواقعة فى دايرة فريضة بالقدر ساعتين من الاماكن التى يمر بها العسكر الفرانساوى فواجب عليهما انهما يرسل للعسكر بعض وكلا من عندها لتعريفا بمرتبوا المشار اليه انهم طاعوا وانهم تعدوا المعاهدة الفرانساوى الذى هو ايضى وكمل وأحمر ●

● المادة الثانية ●

كل قريه التى تقوم على العسكر الفرانساوى تعمرنه بالماره

● المادة الثالثه ●

كل قريه التى تقابل العسكر الفرانساوى الواجب عليها نصب السعادة الفرانساوى وايضا نصب سعادة السلطان العثمانى عمتا دايم بقاه ●

● المادة الرابعة ●

للشايخ فى كل بلد ليتعدوا حالا جميع الاراضى والعبوت والاسلحة يباع للمماليك وعليهم الذى يعاند الزايد تحويلا يسبح ادنا من منها ●

● المادة الخامسة ●

الواجب على الشايخ والقضاه والايمه انهم بالاسوا وطايفهم وعلى كل واحد من اهالى البلد انه يبقى فى مسكنه مطمأن وكذلك تكون السلامة عليهما فى الجوامع مثل الجماعة والمصريين باجمعهم ليتكرروا فضل الله سبحانه وتعالى من اغراض دولت المماليك تقابلوس بحوب حتى ادام الله اجلال السلطان العثمانى ادام الله اجلال العسكر الفرانساوى ليس الله للمماليك واسلم حال الامة المسوده ●

تحريرا بمعسكر الكبير فى ٥ من شهر سنديور ●

سنة من اتحاد الجمهور الفرانساوى بعاهد فى اواخر عهر محرم سنة هجريه ●

إلى سوريا . وبعث القائد برسالة إلى يعقوب تتضمن هذا المعنى ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ عندما تأزمت أمور الحملة وأوشك الفرنسيون على تسليم مصر الى العثمانيين . وهكذا لازم لاسكاريس يعقوب منذ ذلك الحين حتى غادرا مصر سويا ، أى طيلة خمسة شهور . وكان لهذه العشرة ولاشك أثرها فى القصة التى جرت أحداثها فوق سطح السفينة بالاس .



# مسرحية بحرية

تبدأ هذه الأحداث بعدة لقاءات بين يعقوب وقبطان السفينة ، الذى قدر مكانة يعقوب فى قومه ولدى الفرنسيين على السواء ، فخصه بشىء من الحفاوة والتكريم . وفى هذه اللقاءات تبادل الرجلان عدة أحاديث كان لاسكاريس يقوم خلالها بدور المترجم بينهما . وقد دارت موضوعات الأحاديث حول مصر ، حاضرها ومستقبلها . وفيها أدان يعقوب من خلال مترجمه الحكم العثمانى لمصر ووصمه بأسوأ النعوت . وقال إنه أيد الاحتلال الفرنسى للتخفيف مما حاق بمواطنيه من أذى وما وقع عليهم من ظلم واضطهاد . وأضاف يعقوب للقبطان إدموندس من خلال لاسكاريس إنه غادر بلاده سعيا وراء تحقيق استقلالها عن الدولة العثمانية . وواضح أن مضمون هذا الكلام يشبه أفكار لاسكاريس التى سبق أن عبر عنها فى مشروعه الذى قدمه الى الجنرال منو قبل أن يلتحق بالعمل مع يعقوب .

ولما كان ميزان القوى قد مال ، وانتهى الوجود الفرنسى بمصر على يد العثمانيين والإنجليز معا ، ولما كان يعقوب يبحر هو ومن معه على سفينة انجليزية ويتحدث إلى قائدها الذى أكرمه وكان به حفيا ، فقد رأى هو

أو مترجمه أو هما معا — أن من الكياسة ألا يشير إلى فرنسا المهزومة بوصفها القوة الأوربية التى سوف يعتمد عليها فى تحقيق انسلاخ مصر عن الدولة العثمانية ، وأن من حسن السياسة أن يحول الدفة مع تحول التيار نحو بريطانيا . ومن ثم قال يعقوب فى أحاديثه مع الربان الإنجليزى إنه عندما رأى أن يعتمد فى تحقيق غايته على فرنسا لم يكن يدرك مدى قوة بريطانيا . أما الآن فقد أيقن أن الفرنسيين خدعوا المصريين وأن مواطنيه يحتقرونهم اليوم كما كانوا يحتقرون الأتراك من قبل ، وأن تحقيق ما يسعى إليه مستحيل بدون تأييد الحكومة الإنجليزية ! ! ومن ثم فهو يرجو القبطان إدموندس أن يبلغ هذا الموضوع إلى رئيسه قائد البحرية ليرفعه بمعرفته إلى حكومته .

وأراد لاسكاريس أن يضفى على هذه الأحاديث التى لم تستمر لأكثر من يومين ( بين إبحار السفينة ومرض يعقوب ) أهمية خاصة ويسبغ عليها طابعا رسميا ، فأضاف إلى ما ذكره يعقوب من خلاله لإدموندس أن الجنرال يعقوب إنما يسافر على رأس « وفد مصرى » اختاره أعيان البلاد ليفاوض الحكومات الأوربية المعنية فى موضوع استقلال مصر .

* * *

ويبدأ الفصل الثانى من القصة بعد وفاة يعقوب ، عندما قرر لاسكاريس ، وقد انفرد بمسرح الأحداث ، أن الوفد المصرى باق رغم موت رئيسه . واتفق مع إدموندس على أن يعدّ له مذكرة يسجل بها الموضوعات التى دار حولها الحديث بينه وبين يعقوب قبل موته ، لكى يرفعها إدموندس إلى حكومته عن طريق رئيسه الأدميرال اللورد كيث . وتعهد له إدموندس بذلك ، وبأن يحفظ الأمر سرا حتى لا يتسرب الى جهة قد تفسد الخطة .

وقد عكف لاسكاريس بالفعل فى ميناء طولون على كتابة مذكرة



بالفرنسية من عدة أجزاء . وسلمها للربان الإنجليزى . وهى مؤرخة ٢١ سبتمبر ١٨٠١ بعد أن كانت « پالاس » قد ألقت مراسيها فى هذا الميناء ببضعة أيام .

وتقع مذكرة لاسكاريس فى إحدى عشرة فقرة مرقمة ، تتناول كل منها جزئية من جزئيات الموضوع . ويلفت النظر فى هذه المذكرة أن بعض العبارات تتخللها فراغات ويبدو أن الكاتب لم يجد الكلمات المناسبة لملئها ، وأن عبارات أخرى قد أكدها صاحبها بوضع خط تحتها .

قدم لاسكاريس لفقرات مذكرته بقوله : « مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته » . ويمكن تلخيص أهم ما تضمنته هذه المذكرات من نقاط وإشارات فيما يلى :

١ — ناشد لاسكاريس إدموندس أن يؤيد وجهة نظره عند عرض الموضوع على قائده ، حتى يكون هذا سندا له لدى الحكومة البريطانية .

٢ — قال إن مصر جديرة بأن تؤيد الحكومات الأوربية مشروع الوفد الذى فوضه المصريون ، إن لم يكن من أجل ماضيها العريق واعترافا بفضلها على الحضارة ، فعلى الأقل من قبيل العطف عليها .

٣ — أشار الى احتمال أن تتقدم حكومة الجمهورية الفرنسية نفسها فيما بعد إلى الحكومة البريطانية باقتراح تؤيد فيه الآراء الموضحة بالمذكرة . وإذا حدث ذلك فانه سوف يكون بتأثير الوفد المصرى فى باريس ، مع ملاحظة أن تحقيق هذا المشروع ليس فى صالح فرنسا بقدر ما هو فى صالح بريطانيا .

٤ — حث الإنجليز على أن ينتهزوا هذه الفرصة التاريخية التى توشك فيها الإمبراطورية العثمانية أن تتداعى من كل جانب ، فيضمنوا لأنفسهم السيطرة على مصر . وإذا كان من المستحيل على بريطانيا أن تستعمر مصر ، كما استحال ذلك على فرنسا من قبل ، فالأنسب أن تكون مصر مستقلة عن الدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه خاضعة لنفوذ بريطانيا سيدة البحار المحيطة بمصر . ولا شك أن بريطانيا بحكم مركزها الخاص فى الهند سوف تفيد أكبر فائدة من السيطرة على التجارة مع مصر الغنية بمحاصلاتها الوفيرة وبتجارتها مع قلب افريقيا .

٥ — أكد أهمية إحكام النفوذ البريطانى لا مجرد السيطرة التجارية على مصر . فقد تعود فرنسا كما كانت حليفة للباب العالى ، وعندئذ قد يتخذ العثمانيون من الاجراءات ما يؤدى الى تحطيم التجارة الانجليزية فى الشام والبحر الأحمر .

٦ — نقد بحكم الفرنسيين لمصر فى أثناء احتلالهم لها ، وأشار الى ما سبق أن تردد فى الأحاديث مع إدموندس من كراهة المصريين لهم نتيجة لذلك . ثم أكد أن مصر المستقلة ، بعد أن أدرك أهلها حقيقة الإنجليز ، لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا .

٧ — اعتذر عن عدم الخوض فى تفصيلات نظام الحكم لمصر المستقلة . فالتغيير المطلوب لن يكون نتيجة ثورة تقوم على أساس من آراء أو مبادىء معينة ، وإنما سيكون وضعا تفرضه قوة قاهرة على شعب مسالم جاهل لا يكاد يحرك أفراده سوى عاطفتى المصلحة والخوف . ومن ثم فيكفى أن ترفع الحكومة الجديدة قليلا من المستوى المادى للشعب فتنال تأييده ومساندته . ولا شك أن أى نظام للحكم سيكون أفضل من



الاستبداد التركى . فلتكن الحكومة الجديدة إذا عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد ( التى قضى عليها على بك الكبير قبل الحملة الفرنسية بنحو ثلاثين عاما ) .

٨ — من حيث الدفاع قال إنه ليس من المتوقع أن تهاجم الدول الأوربية مصر ، ولكن هذه الدول تستطيع أن تردّ عن مصر عدوان الأتراك والمماليك . وفى الوقت نفسه يستطيع المصريون أن يستخدموا على حسابهم قوة دفاع أجنبية يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ ألف رجل يكفون تماما لحماية مصر من الأتراك والمماليك جميعا ، وتكون هذه القوة نواة لجيش وطنى . ثم إنه يمكن شراء ذمم العثمانيين بالمال حتى لا يفكروا فى الهجوم على مصر .

٩ — من حيث الأمن الداخلى قال إن الشعب فى مصر ينقسم إلى عدة طوائف ، وإن هذا يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض لحفظ التوازن بينها . وأكد أن الوفد المصرى على صلات بهذه الطوائف جميعا دون ما تحيز ، وأن هذه الصلات لا يعلم بها جهاز الحكم التركى المستبد ، وإلا كانت العاقبة وخيمة على « الأخوة دعاة الاستقلال » .

١٠ — أكد أن المصريين عامة ، ووفدهم لدى الحكومات الأوربية بوجه خاص ، سيبذلون كل ما بوسعهم من جهد ليتحرروا من ذلك النير الذى يثقل كاهل بلادهم التعسة ، وأن المشروع السياسى الذى يسعى الوفد لتحقيقه هو فى صالح الدول الأوربية جميعا ، بل وفى صالح تركيا كذلك .

١١ — قال انه اذا خاب سعى المصريين ولم يحقق اتفاق الصلح العام أملهم ، وعاد العثمانيون إلى امتلاك مصر ، فإن المهاجرين

المصريين يرجون أن تدبر لهم الدول المتعاقدة ضمانا يقيهم شر انتقام السلطات التركية إذا ما رجعوا إلى وطنهم .

١٢ - حذر من تسرب خبر هذه « المفاتحات » إلى فرنسا أو إلى أى طرف آخر يمكن أن يعرقل ما تمهد له من « مفاوضات » . فخطة الوفد هى إقناع الجانب الإنجليزى أولا بمشروعه ، والسعى لأن تكون فرنسا نفسها هى البادئة بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ... وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الإنجليز بسبب العداء بينهم وبين الفرنسيين ، أو بسبب دسيسة من جانب فرنسا .

١٣ - رتب طريقة الاتصال بالوفد المصرى فى باريس باستخدام « ثغرة » خاصة ، وعن طريق صديق للوفد يقيم بأوربا . ( وهو مصرى قبطى اسمه انطون قسيس عمل طويلا فى خدمة امبراطورية النمسا مستظلا بحمايتها فى مصر ، ثم استقر فى تريستا وأصبح يدعى الكونت أنطون كاسيس : A. Cassis ) .

وينتهى الفصل الثانى من القصة بإقلاع ادموندس بسفينته الى جزيرة مينورقا غربى البحر المتوسط ، بعد أن يكون قد أدى المهمة الأساسية لرحلته ، فأفرغ حمولته البشرية بما فيها جثمان الجنرال يعقوب على الأرض الفرنسية .

* * *

ويتسع مسرح الأحداث فى الفصل الثالث ليمتد من ميناء مرسيليا فى جنوب فرنسا إلى جزيرة مينورقا التى رسا بها إدموندس . فعلى ظهر السفينة بالاس هناك أوفى القبطان الإنجليزى بما وعد ، فرفع مذكرة لاسكاريس مرفقة برسالة مؤرخة ٤ أكتوبر دبجها إلى إيرل سانت



فنسنت (S. Vincent) وزير البحرية البريطانية . وقد آثر إدموندس أن يرفع مذكرة لاسكاريس رأسا الى الوزير متخطيا رئيسه المباشر اللورد كيث ، مع أن هذا هو ما كان مفروضا أن يحدث ، وهو نفسه ما طلبه يعقوب ولاسكاريس من إدموندس ، وذلك أخذا بالأحوط وإبراء لذمته ووفاء بعهده . وقد برر هذا التخطى الإدارى فى رسالته إلى الوزير فى بدايتها ونهايتها . لقد بدأها بقوله « استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم الوفد المصرى موجودون الآن فى باريس » . وختم الرسالة بقوله « ... رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، اذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتاح لى فرصة إبلاغها أولا الى قائدى العام اللورد كيث ، وآمل أن تتفضلوا فتقدروا مسلكى هذا » .

ضمّن القبطان إدموندس رسالته التى قدم بها المذكرات إلى الوزير خلاصة موجزة لما حدثه به يعقوب ، بعد أن أشار إلى أنه من زعماء طائفة الأقباط وله فيها نفوذ كبير ، وأن الفرنسيين جعلوه قائدا لفيلق من أبناء طائفته لينالوا تأييده . وأكد أنه أعطى موثقا لمحدثه بألا يستخدم هو أو تستخدم الحكومة البريطانية ما أبلغه به استخداما يمكن أن يسىء إليه هو ومن معه . ولكن إدموندس أبدى تحفظه إزاء نقطتين :

١ - فقد تشكك فيما ذكره له لاسكاريس الذى كان يترجم بينه وبين محدثه من أن يعقوب **يرأس وفدا** فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية فى استقلال هذا البلد « .. لا يمكننى تقدير مدى ما يحمله ( الوفد ) من تفويض وما يملكه من صلاحيات » .

٢ - وكذلك تشكك فى حقيقة الدور الذى يقوم به لاسكاريس . فهل هو عضو فى هذا ( الوفد ) أم أنه مجرد سكرتير مترجم

ليعقوب . ثم وصف لاسكاريس بأنه رجل « مغرق فى الخيال » .

وهاتان الوثيقتان ( مذكرة لاسكاريس ورسالة إدموندس ) مازالتا محفوظتين بوزارة الخارجية البريطانية . وكان أول من أشار اليهما الأستاذ شفيق غربال وأول من قدمهما بنصيبهما ( فى كتاب طبع بمصر ) المؤرخ الفرنسى جورج دوان (G. Douin) [٣٤] .

أما على الطرف الآخر من المسرح ، فقد شغل المهاجرون الذين نزلوا إلى الشاطىء الفرنسى بتشييع جثمان يعقوب إلى مثواه الأخير فى مقبرة بمارسيليا . وبينما كانوا يتممون الإجراءات الصحية بمحجر الميناء كان لاسكاريس يعد لمشهد جديد . فقد بدأ يخطو خطوة أخرى يكمل بها محاولته الأولى مع الحكومة الإنجليزية ، فحرر مذكرة بالفرنسية كذلك إلى « القنصل الاول » بونابرت . ولكنه للحيطة لم يوقع عليها ، وإنما جعل التوقيع لشخص آخر من جماعة المهاجرين المصريين هو « نمر افندى » ، وذلك « نيابة عن الوفد المصرى » . وصاحب هذه الشخصية التى ظهرت فجأة على مسرح الأحداث والتى تستر وراءها لاسكاريس هو سورى مسيحى كان يعمل مترجما للغات الشرقية فى مصر ، واسمه لطفى ( أو لطف الله ) نمر [٣٥] .

وتتضمن هذه المذكرة الموجهة « إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير » النقاط التالية :

ـــ إشادة بتاريخ مصر القديم وحضارتها التى كان يتلقى عنها دروس العلم والعرفان مشرّعو الإغريق ( مثل سولون ) .

ـــ تنويه بإنجازات الجمهورية الفرنسية الناشئة فى الحرب والسلم ، وبخاصة تحت حكم بونابرت .

ـــ إن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون « الباقون على ولائهم



لبونابرت » سيضعون لمصر من النظم ما يرضاه لها القنصل الأول .

ـــ تملق لبونابرت ومناشدة له أن يتنزل فيمد يد المساعدة « للمصريين التعساء » الذين حطم فى الماضى أغلالهم ثم عادوا ينوءون بها من جديد ، من أجل مجده ولمصلحة فرنسا .

ـــ إشارة إلى « الفتح العظيم » الذى ناله بونابرت ثم فقده ( بالجلاء عن مصر ) ، وتأكيد أن القائد الفرنسى إذا أيد فى اتفاقيات الصلح أن تكون مصر مستقلة ، فسوف يعوض هذا الموقف خسارته تلك مائة مرة .

ولم يكتف لاسكاريس بهذه المذكرة التى حاول بها إقامة جسر بين المهاجرين المصريين والحكومة القنصلية فى باريس ، وإنما أردفها بمذكرة أخرى إلى تاليران (Talleyrand) وزير الخارجية الفرنسية وقعها كذلك « نمر افندى » . وفى هذه المذكرة :

ـــ إعلان لولاء الوفد المصرى – الذى فقد زعيمه يعقوب – وحبه للجمهورية الفرنسية .

ـــ رجاء إلى الوزير الفرنسى بأن يتفضل ويضع الوفد ومجموعة المهاجرين فى كنفه وتحت رعايته .

ـــ تأكيد أن الوفد المصرى يمثل شعب مصر تمثيلا كاملا ، ويعبر عن أمانى هذا الشعب وما أجمع عليه .

ـــ تحديد مطالب المصريين فى نقطتين : سحق القوة الغاشمة التى عادت تستبد بهم من جديد ، والاعتماد على فرنسا فى تحقيق هدفهم الذى يخدم فى الوقت نفسه مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها .

ـــ تكرار ما تضمنته المذكرة الموجهة إلى القنصل الأول من أن فرنسا تستطيع عن طريق الاستماع إلى هذا الوفد قبل توقيع اتفاق الصلح مع بريطانيا ، أن تعوض ما خسرته بالجلاء عن مصر ، وأن تحتفظ للأبد

بنفوذها السياسى فى الشرق .

ـــ تأكيد أن فرنسا يمكنها أن تمد نفوذها نحو أواسط أفريقيا بواسطة مصر التى لن تكون إلا موالية لها « وهكذا يتحول تركيكم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد للقنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية .. » !

ـــ مناشدة الوزير أن يستقبل الوفد المصرى فى باريس ويستمع الى تفصيلات ما أجمله فى رسالته ، وأن يتفضل فيعمل على أن تصل رسالته الأخرى المرفوعة الى القنصل الأول ، وأن يتنزل هذا بالرغم من ثمين وقته فيطلع عليها .

وهاتان المذكرتان أو الرسالتان ما زالتا محفوظتين بوزارة الخارجية الفرنسية . وقد ورد ذكرهما لأول مرة فى مقال كتبه المؤرخ الفرنسى أوريان (Auriant) عن لاسكاريس عام ١٩٢٤ [٣٦] ، ثم ترجمهما بعد بضع سنوات الأستاذ شفيق غربال وألحقهما ببحثه المشار إليه من قبل .

* * *

تلك المذكرات ، سواء ما اتخذ منها طريقه إلى لندن أو ما أرسل إلى باريس تكوّن فى مجموعها ما سماه عدد من المؤرخين « مشروع استقلال مصر » ، ونسبوه إلى الجنرال يعقوب رئيس الوفد المصرى . ومن ثم رأى بعضهم أن يمجدوا هذا الرجل لأنه سبق عصره بأكثر من قرن فحسل فى جعبته وهو يغادر مصر « مشروعا خطيرا هو مشروع الاستقلال الأول » .

وبادىء ذى بدء ينبغى أن نحدد صاحب هذا المشروع . فهل هو يعقوب الذى مرض بعد يومين فقط من إبحار السفينة التى غادر مصر



على ظهرها ؟ أم هو لاسكاريس صاحبه ومترجمه الذى نقل فحوى أحاديثه إلى قبطان السفينة ثم صاغها فى تلك المذكرات فيما بعد ؟ أم اشترك الرجلان فى هذا العمل ؟ ثم ... هل كان هناك حقا « وفد مصرى » ضمن جماعة المهاجرين من مصر ؟ وهل هذا الوفد مفوض من قبل الشعب المصرى أو من قبل قطاعات معينة فيه ؟ ومن الذى فوضه أو أوفده بالضبط ؟ لنتأمل ما يلى من ملاحظات ، فلعل فيها ما يجيب عن هذه التساؤلات :

١ ـ إذا كان يعقوب قد عبر عن أمنيته فى استقلال مصر أو بعبارة أصح فى انسلاخها عن الدولة العثمانية ، فليس هذا بمستبعد على رجل كان له ما رأينا من نزعات وطموحات ومواقف . غير أن المشروع المدون يتضمن بعض الأفكار الفلسفية والحقائق التاريخية والسياسية التى تدل على شىء من خلفية ثقافية تحسب أن يعقوب كان بحكم نشأته وتكوينه أبعد ما يكون عن اكتسابها . وتكفى الإشارة إلى ما ورد بالمذكرات عن حضارة مصر القديمة وصلتها بالحضارة اليونانية ، وعن المشرِّع سولون ، وعلاقات مصر بأفريقيا ، ومركز بريطانيا بالهند ، ونظام الحكم الفرنسى .. الخ ، ليرجح لدينا أن وراء هذا المشروع أفكار لاسكاريس لا يعقوب .

٢ ـ إن لاسكاريس كما علمنا هو الذى سبق أن تقدم إلى الجنرال منو بمشروع مشابه لاستقلال مصر لم يقتنع به القائد الفرنسى وأشبع صاحبه سخرية .

٣ ـ إن المشروع بما ردده من أوهام وما قدمه من مقترحات غير واقعية أكثر اتفاقا وشخصية لاسكاريس المسرف فى الخيال الذى « يعيش فى عالم كامل من أحلام اليقظة » وذلك مثل إنشاء القوة الأجنبية المرتزقة ، واتفاق الدول الأوربية على ضمان استقلال

مصر ، وتقدير شعب مصر للإنجليز وإدراكه لقوتهم ، وأن مصر المستقلة لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا !

٤ - إن يعقوب الذى تعاون مع الفرنسيين فى أثناء احتلالهم لمصر إلى أقصى حد كما رأينا ، وأحبهم وفضل أن يترك بلاده ويلحق بهم عند جلائهم عنها ، لايعقل أن يتحول فجأة إلى ذم هؤلاء الفرنسيين والتنديد بأساليبهم فى حكم مصر ، وإلى الإعجاب ببريطانيا وإظهار الولاء لها ، ومناشدتها العمل على تحقيق استقلال بلاده ، ثم محاولة تأليبها على فرنسا . وحتى إذا سلمنا جدلا بأن يعقوب قد تحول بولائه فعلا إلى الانجليز ، فكيف يمكن أن يكون فى الوقت نفسه وراء المذكرتين المرسلتين إلى بونابرت وتاليران ؟

٥ - إن التناقض البين ، والذى يثير السخرية ، بين ما كتبه لاسكاريس للإنجليز وما كتبه للفرنسيين يدعو إلى الشك فى جدية الموضوع . فلا يقبل العقل أن يتصرف مفاوض سياسى يتحدث عن استقلال شعب هذا التصرف البهلوانى الذى يتفق تماما وشخصية لاسكاريس لا شخصية يعقوب الذى لم يكن خياله يوما ، بالرغم من طموحاته ، فى جموح خيال صاحبه . وإنما كان دائما بسلوكه وتصرفاته رجلا جريئا معتدا بنفسه تغلب عليه النزعة العملية ، وإن كانت أحيانا غير متبصرة .

٦ - إن ملازمة لاسكاريس ليعقوب بضعة أشهر قبل جلاء الحملة لا تعنى مطلقا أنه عبّر فى مذكراته تعبيرا دقيقا عن آراء يعقوب ، كما وهم بعض المؤرخين ، فلم تكن ظروف مصر فى تلك الأيام لتنبىء عن تلك التغيرات والأحداث التى وقعت فيما بعد ، حتى يخطر على بال رجل مثل يعقوب أن يتصل بالانجليز ليعرض عليهم مشروعا ما .



٧ - إن إرسال إدموندس لمذكرات لاسكاريس إلى رئيسه الأعلى مباشرة لا تدل أبداً على اقتناعه بأنها تتضمن حديث يعقوب الذى أخذه « مأخذ الجد الخطير » كما يقول الدكتور لويس عوض [٣٧] . فلم يكن فى وسع القبطان الإنجليزى أن يغفل هذه المذكرات مهما كانت شكوكه فى جديتها أو أهميتها ، فهو جندى رأى من واجبه أن يخطر سلطات بلاده بما حدث على ظهر سفينته فى تلك الأيام الحرجة ، وبخاصة أنه لم تكن لديه أية خبرة أو معرفة سياسية بخلفية الأحداث وتطورها . ومع هذا فقد أعرب إدموندس عن تحفظه ( أكثر من مرة ) إزاء صفة لاسكاريس وحقيقة العلاقة بينه وبين المصريين المهاجرين ، وإزاء مدى ما بيد الوفد المصرى من تفويض . كما وصف لاسكاريس بأنه رجل حالم واسع الخيال . وإذا كان إدموندس قد ذكر فى رسالته لرئيسه أن الجنرال يعقوب أبلغه بكذا أو أعرب له عن كذا فلم يكن - كما نعلم - ينقل عنه مباشرة ، وإنما كان يردد ما ذكره له المترجم لاسكاريس . وليس من المستبعد أبدا ، بعد ما تبينا من غرابة أطوار لاسكاريس ، أن يكون قد حرف أحاديث يعقوب لكى تلائم أغراضه . ولو كان إدموندس قد علم بما يدبره لاسكاريس من اتصال مضاد بالمسئولين الفرنسيين لما أعار مذكرته إلى الوزير البريطانى أدنى اهتمام ، ولأصبح أكثر إدراكا لحقيقة ذلك الفارس الخيالى الذى يبارز طواحين الهواء !

٨ - لا يوجد أى دليل على أن مجموعة المهاجرين من مصر كانت تضم وفدا مفوضا من الشعب أو من أية طائفة ذات ثقل من طوائفه . فاذا كان علماء الأزهر ومن إليهم مثلا قد فوضوا من بين المهاجرين من يتحدث باسمهم ، فلم يكن الجبرتى ليغفل تسجيل هذا الحدث ، وهو الذى سجل من أحداث تلك الأيام

ما هو أقل أهمية بكثير . وليس هناك ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من زعماء القبط . فلم تكن لأى منهم اهتمامات سياسية أو تطلعات مثل تطلعات زميلهم الطموح ، وانما كانوا دائما يؤثرون السلامة والبعد عن المشكلات . ولم تكن مثل هذه الخطوة كذلك لتفوت مؤرخا كالجبرتى أو من أرخوا للحملة من الفرنسيين . لقد اجتمع يعقوب قبل رحيله فعلا بعدد من زملائه كبار الأقباط . ويقول الدكتور لويس عوض معلقا على ذلك بما يوحى بربط هذا الاجتماع بمشروع الاستقلال « ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار فى هذا الاجتماع ، وهل كانت له صبغة سياسية أم أنه كان قاصرا على مناقشة المسائل المالية ، ولعله أطلعهم على مشروعه ونواياه[٣٨] » . هذا مع أن الاستاذ شفيق غربال أثبت نقلا عن حمصى وغيره أن هذا الاجتماع كان لتفويض يعقوب فى مطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه كبار الأقباط للجنرال منو عندما تأزمت أحوال الحملة فى أواخر أيامها [٣٩] .

كان يعقوب فى حقيقة الأمر هاربا أو مهاجرا من مصر ، ولم تكن له فى وطنه قوة أو شعبية يعتمد عليها وتسنده فى موضوع خطير كالتفاوض من أجل الاستقلال مع القوتين العظميين فى ذلك الوقت . حتى فيلقه القبطى كان قد تشتت بددا كما رأينا قبل رحيله . وأقصى ما كان يتصور أن يراود يعقوب عندئذ من أمنيات شخصية هو أن تنسلخ مصر عن دولة الخلافة العثمانية ، وأن تصبح تابعة لدولة كبرى تحتضن أقلياتها وتزود عنهم سطوة الأغلبية .

١٠ - كان المهاجرون الذين رحلوا فى ذيل الحملة الفرنسية أشتاتا من



الأقباط ونصارى الشام والمرتزقة وبعض المسلمين الذين يخشون مواجهة سلطات الحكم العائد كعبد العال أغا الأنكشارية . ومثل هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا بأى مقياس وفدا مصريا يتفاوض من أجل استقلال مصر .

ومن هنا فالحديث عن « وفد مصرى » يمثل مختلف طوائف مصر ويتزعمه يعقوب ويتفاوض من أجل استقلال البلاد يغدو مقولة واهية تفتقر إلى السند والبرهان .

# نهاية الأحداث

كيف انتهت أحداث هذه القصة المثيرة ؟ إن هذا التساؤل الذى يفرض نفسه الآن يتطلب أن نجيب عن شقين : ما الذى أدت اليه هذه الاتصالات ، أو بالأحرى محاولات الاتصال ، مع حكومتى القوتين العظميين فى ذلك الزمان ، بريطانيا وفرنسا ؟ ثم ... ماذا كان مصير أصحابها ، ومعهم أولئك الذين خرجوا من مصر مهاجرين إلى المجهول ؟

● إن مذكرة لاسكاريس المرفوعة إلى الحكومة البريطانية ، بالرغم مما توافر لها من ضمانات إجرائية ، لم يكن لها أى أثر أو صدى على أى مستوى . فقد أهمل أمرها تماما ، واكتفى مكتب وزير البحرية البريطانية بتحويلها « للإيداع فى محفوظات وزارة الخارجية » . هذا بالرغم من أن بريطانيا لم تكف ، منذ نجحت مع العثمانيين فى إخراج الفرنسيين من مصر ، عن السعى لمحاولة احتلالها أو إقرار نفوذها فيها . فقد بقى الأسطول الإنجليزى فى المياه المصرية وبقيت بعض القوات الإنجليزية فى مصر حتى سنة ١٨٠٣ . وفى الوقت نفسه بذلت بريطانيا جهودها الدبلوماسية مع الباب العالى لمنع وقوع مصر بالذات فى يد





فرنسا أو غيرها . ولجأت بريطانيا كذلك إلى استمالة عدد من المماليك الذين عادوا من سوريا مع القوات العثمانية إلى جانبها ، فتكون من هؤلاء — لا من الأقباط أو غيرهم من الأقليات — حزب موال للإنجليز بزعامة محمد بك الألفى . وقد سافر الألفى مع القوات الإنجليزية المنسحبة ، وبقى فى لندن مدة اتفق خلالها مع المسئولين البريطانيين على أن يمكنوه من تولى السلطة فى مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات ، مثل حماية السواحل المصرية . غير أن حزب الألفى فشل فى تحقيق هذا المخطط ، واستقر الأمر فى مصر لمحمد على . وأخيرا وجهت بريطانيا حملتها المعروفة بقيادة فريزر لاحتلال مصر عام ١٨٠٧ ، ولكنها ردت على أعقابها . وظلت بريطانيا — كما نعلم — طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر تعمل على احتلال مصر وتقاوم النفوذ الفرنسى فيها ، حتى نجحت فى احتلالها عام ١٨٨٢ .

وفى فرنسا لم يكن حظ مذكرتى لاسكاريس بأفضل من حظ مذكرته المطولة إلى الحكومة البريطانية . فلم يبد بونابرت ولا تاليران أدنى اهتمام بالرسالتين ولم يأخذا ما جاء فيهما مأخذ الجد ، وتم تحويلهما بدورهما إلى محفوظات وزارة الخارجية . وهذا أيضا بالرغم من جهود فرنسا المضادة لجهود بريطانيا فى محاولة الاستئثار بشىء من النفوذ فى مصر . فقد كان لفرنسا بدورها حزب من المماليك بزعامة عثمان بك البرديسى ، ولكن حظه لم يكن بأفضل من حظ حزب الألفى فى مواجهة نجم محمد على الصاعد . ومن خلال العلاقات مع حكومة محمد على نفسه حاولت فرنسا عن طريق تصدير الخبرة والثقافة لا الاعتماد على الاقليات ، أن تتسلل إلى مختلف المجالات فى دولة مصر الحديثة التى أقامها ذلك العاهل الكبير . ثم تتابعت محاولاتها فى عهد خلفائه حتى نجحت منافستها الكبرى فى احتلال البلاد أيام توفيق .

وعلى أية حال فقد اتفقت الدولتان فى محادثات الصلح على إعادة

مصر لحظيرة الدولة العثمانية . وتم إدماج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية التى وقعت فى أميان (Amiens) عام ١٨٠٢ . وخلال السنوات التى أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية لم يدر فى خلد أى من الدولتين المتنافستين على مصر خاطر يتصل بتطوير ما فى بنية الحكم يحقق لونا من الاستقلال أو الرفاهية للشعب المصرى ، أو يرفع عنه شيئا من مظالم المماليك أو استبداد الحكم العثمانى ، كما جاء فى مشروع الاستقلال المزعوم .

● أما المهاجرون الذين أقلتهم الفرقاطة پالاس الى الشواطىء الفرنسية فقد كان مصيرهم التشتت والضياع . لقد أغفلت الحكومة الفرنسية أمرهم تماما ، ولم تستقبل منهم أحدا ، ولم يعرهم المسئولون أى اهتمام . وعاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل ، وظل الباقون هناك نهبا للفقر والفاقة ، بل إن بعضهم — كما تثبت وثائق وزارة الخارجية فى باريس — لجأ الى السلطات الفرنسية مستجديا فمنحتهم الحكومة الفرنسية معاشا ، وانتهى أمرهم بأن ذابوا فى المجتمع الفرنسى [٤٠] . ولم يترك احدٌ منهم فى التاريخ ذكرا إلا الشاب القبطى « إليوس بقطر » ، الذى كان فى الثامنة عشرة عندما انضم إلى قافلة الراحلين عن مصر ، فقد تعلم إليوس الفرنسية وأجادها واشتغل بالترجمة والتدريس فى باريس نحو عشرين عاما تمكن خلالها من إعداد أول قاموس فرنسى عربى تم طبعه بعد وفاته [٤١] .

وأما فارسنا الدون كيشوتى ، النبيل البيدمونتى [٤٢] الحالم لاسكاريس ، فقد ظل — كما قال الأستاذ شفيق غربال — « يضرب فى بلاد الشرق سنين ، يجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع ، أحيانا لإصلاح الزراعة فى بلاد القوقاز ولبنان ، وأحيانا لتدبير مستقبل الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهابية . وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين ، وحظه الحزن والفاقه » [٤٣] .

وانتهى المطاف بالفارس المغامر إلى مصر ، حيث أخذ يتكسب بتعليم



اللغة الفرنسية للأمراء ، وبخاصة إسماعيل بن محمد على ( الذى فتح السودان وهناك قتله نمر ملك شندى ) . ثم مات لاسكاريس فى القاهرة عام ١٨١٧ فى ظروف مريبة . وقيل إنه مات مسموما على يد أحد رجال محمد على لأنه أقحم نفسه أكثر من اللازم فى المسائل السياسية . وهكذا كانت نهاية الرجل الخيالى المغامر ، الذى بدأ وانتهى كما وصف نفسه « صاحب مشروعات » .

# وبعد ...

فهذه قصة المعلم يعقوب ، المصرى القبطى ، الذى عاش حياة امتدت ستة وخمسين عاما ، ذاق فيها لذة الغنى والترف ، وتمتع بالجاه والنفوذ ، وصار من زعماء طائفته المرموقين . ولكن سيرته فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته وحدها كانت حديث الناس فى أثنائها وبعد انقضائها . لقد كانت تلك الفترة الزمنية على قصرها حافلة بالأحداث التى تركت آثارا عميقة فى حياة البلاد . ومنذ بدايتها اختار يعقوب لنفسه نهجا واضحا لم يحد عنه ، ربط فيه نفسه بالحملة الفرنسية ومصالحها ومصيرها ، وتمادى فى هذا إلى أبعد حد ، حتى أنه وجد من المنطقى أن يرحل مع قوات الحملة بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومنيت مشروعاتهم فى استعمار مصر بالفشل .

ولقد تناولت هذه الدراسة بكل موضوعية سيرة يعقوب منذ نشأته ، وتعرضت لمكونات شخصيته ، ثم ركزت على تلك الحقبة العسيقة العريضة رغم قصرها ، ففصلت القول فى سلوك يعقوب ومواقفه فى إطار المتغيرات التى لحقت وجه الحياه فى مصر إبانها ، وفى ظل الظروف التى صاحبت أحداث الحملة وتفاعلت معها . واعتمدت



فى هذا كله على عدد وفير من المراجع والوثائق .

وليس من العسير فى ضوء ما تقدم أن نحاول الإجابة عن السؤال الذى كان محور هذه الدراسة ، وهو : هل يعقوب خائن لقومه وبلاده ، باع نفسه للمحتل الغاصب وتفانى فى خدمة مصالحه ؟ أوهو – على النقيض – بطل وطنى وضع أول مشروع لاستقلال مصر ، وسبق به الحركة الوطنية المصرية بعشرات السنين ؟

ينبغى أن نقدر أولا أنه لم يكن قد تبلور فى مصر فى ذلك الوقت شعور وطنى خالص . لقد كان هناك إحساس عميق بالانتماء إلى هذه الأرض والاعتزاز بتراثها الحضارى المشترك من لغة وتقاليد وعادات ، ولكن على أساس أن مصر جزء من « دارالإسلام » يتعايش فوق أرضها شعب غالبيته من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم ، دون ما تعصب أو تطرف . ومن هنا فقد قاوم المصريون الحكم الفرنسى وثاروا عليه فى القاهرة ومختلف أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، ولكنهم كانوا بوجه عام متقبلين للحكم العثمانى المملوكى بالرغم من مساوئه . وكانوا أحيانا ما يقاومون بالغضب والاحتجاج والسخط طغيان وال أو ظلم مملوك ، ولكنهم لم يقوموا بأية ثورات شعبية « وطنية » على شكل السيادة أو نظام الحكم .

ولم يشهد التاريخ طيلة ما يقرب من ثلاثة قرون قبل مجىء الحملة إلا محاولتين فرديتين للانتقاض على السيادة العثمانية أو الطغيان المملوكى أوهما معا ، كانت أولاهما ثورة همام بن يوسف زعيم قبائل الهوارة بالصعيد ، الذى استقل بالمنطقة الممتدة من المنيا حتى حدود مصر الجنوبية حوالى عام ١٧٦٥ ، ثم كسر على بك الكبير شوكته وقضى على حكمه بعد أربع سنوات . وكانت المحاولة الثانية على يد على بك الكبير نفسه الذى كان شيخا للبلد ، أى زعيما لمماليك مصر ، وتمرد على سلطة الباب العالى واستقل بمصر عام ١٧٦٦ . ولكن ما لبثت هذه

المحاولة بدورها أن أجهضت بعد ما لايزيد على ستة أعوام . وقد أدرك بونابرت ذلك تماما منذ بداية حملته ، فحاول من خلال منشوراته إلى المصريين أن يضرب على وتر المشاعر الدينية فيؤكد حرصه على احترام الإسلام وتوقير علمائه والاعتراف بسيادة السلطان العثمانى « خليفة المسلمين » ولكن القائد المحاتل لم ينجح فى هذه المحاولة التى لم تخدع أحدا ، ولم تجد بيئة صالحة تؤتى فيها ثمارها . وكل دارس لتاريخ مصر الحديث يعلم أن الشعور القومى المصرى ، أى الشعور بالانتماء الوثيق إلى هذا « الوطن » ذى المقومات المعروفة المحددة ، بكل أبعاد هذا الانتماء ، ظل ممتزجا امتزاجا قويا بالشعور الدينى ، أى بالانتماء الى دار الإسلام الواسعة ، بكل ما يفرضه هذا الانتماء من التزامات ، حتى ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على أن يبدأ تبلور الشعور « الوطنى » بالمعنى السياسى الحديث بعد عهد الحملة بعشرات السنين .

وفى ظل تلك الظروف ، كيف نقوم مسلك المعلم يعقوب ؟ إنه لم يكن مجرد خائن لقومه وبلاده ، فوصفه بذلك هو من قبيل إطلاق الأحكام العامة التى تفتقر إلى التحديد . والأدق أن يوصف بأنه منشق على نظام الحكم القائم وبنيته رافض له . ولكن ما أساء إلى موقفه أبعد الإساءة أن هذا الانشقاق أو الرفض اتخذ من البداية بعدا طائفيا مذموما ، فضلا عما امتزج به من طموحات شخصية .

لقد رفض يعقوب إذ واتته الفرصة أن يستمر فى الخضوع لنظام الحكم الإسلامى ، الذى كان فى رأيه يمثل طغيان الأغلبية على الأقلية ، وفى ظله تضطهد طائفته القبطية وتمتهن حقوقها . وانشق يعقوب على أمته فصانع-كما رأينا-الحاكم الفرنسى منذ البداية وذهب فى مصانعته إلى أبعد مدى . وكان له من رفضه وانشقاقه موقف لم يحد عنه ، بل راح يتنهز كل فرصة لإثباته وتأكيده ، وهو موقف اتسم بنظرة طائفية متطرفة كانت لها مظاهرها التعصبية الحادة .



أملى هذا الموقف على يعقوب أن يحارب فى صف الفرنسيين ضد المماليك الذين عمل من قبل فى خدمتهم ، وأن يتحمس لتكوين الفيلق القبطى ويشترك به فى عدة عمليات مع الفرنسيين ضد الوجود العثمانى فى أواخر عهد الحملة . ولقد رأينا كذلك كيف كانت تصرفاته ، من مركز القوة ضد مواطنيه المسلمين .

لقد ساند يعقوب بكل ثقله وإمكاناته الغزاة الفرنسيين وعاونهم فى إحكام قبضتهم على مصر ، واحتمى بقوتهم ، وحسب أن حكمهم بداية لمرحلة جديدة سوف تتغير فيها موازين القوى ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية الفرنسية مكانة متفوقة تتناسب وما قدمه هو وفيلقه لسلطات الحملة من خدمات . ولقد رأينا فى سيرة يعقوب خلال سنوات الحملة الثلاث كيف امتزج لديه الطموح الذاتى والمطامع الشخصية بتلك النظرة المستقبلية غيرالمتبصرة . وعندما بات مصير الحملة فى مصر واضحا آثر يعقوب الانسحاب من الساحة ، ولم يلبث أن وافاه أجله .

أما أحاديث يعقوب على ظهر الفرقاطة « بالاس » مع قبطانها الإنجليزى ، فلا تعدو أن تكون من قبيل الأحاديث العفوية العابرة . وقد أوضحت هذه الدراسة دور لاسكاريس فى نقلها وصياغتها حتى تحولت إلى مذكرات كان مصيرها الحفظ فى أضابير وزارتى الخارجية فى لندن وباريس .

ومن التجاوز الشديد ، بل ومن الشطط اللاموضوعى أن ننظر إلى هذه المذكرات أو الى شق منها كما فعل بعض المؤرخين ، باعتبارها أول مشروع لاستقلال مصر ، وأن ننسب هذا المشروع إلى الجنرال يعقوب ، وأن يتطرف البعض فيرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين . إن يعقوب لو كان قد فكر بالفعل فى مشروع لاستقلال البلاد لقدمه إلى قواد الحملة فى تلك الفترة الحافلة التى سبقت جلاء

القوات الفرنسية . ولاشك أن صلة يعقوب بهؤلاء القواد وما توافر لديه عندئذ من إمكانات كانت تسمح له بذلك فى الوقت المناسب . بل إنه كان يستطيع أن يقدم ذلك « المشروع » إلى الجنرال بليار أو غيره على ظهر السفينة بدلا من الثرثرة فيه مع القبطان الإنجليزى . ولعل التناقض الواضح بين فكرة الاتصال بالمسئولين الإنجليز لتحقيق ما سمى بمشروع الاستقلال وبين الاتصال فى الوقت نفسه بالمسئولين الفرنسيين ، ليؤكد ما سبق أن خلصت إليه الدراسة من نسبة ما حدث إلى لاسكاريس ؛ الرجل الخيالى الحالم الذى عاش ومات « صاحب مشروعات » .

لقد رفض الدكتور لويس عوض فكرة أن يكون لاسكاريس وراء تلك المذكرات وجزم بنسبتها إلى يعقوب ... الذى كان على رأس مجموعة من « المنفيين المصريين » تمثل « وفدا مصريا » . وذهب الدكتور لويس عوض فى الإشادة بيعقوب وبمشروعه والتحمس له مذهبا انفرد به دون سائر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين ، إذ وصفه بأنه يمثل مدرسة فى الوطنية والكفاح القومى تعادل — فى تلك الأيام — مدرسة عمر مكرم ومن إليه ، وإن اختلفت سبيل كل منها واختلف مذهبه فى الفكر والفعل . وقال إن يعقوب وفيلقه القبطى نموذج شائع فى عهد بونابرت ، وقارن بينه وبين من تطوعوا فى صفوف الجيش الفرنسى من الأوربيين إيمانا منهم بمبادىء الثورة الفرنسية . ثم وصف « مشروع استقلال مصر الذى وضعه يعقوب والإخوان الاستقلاليون » بأنه موضوعى ووطنى ، وأنه يتفق مع مصالح البلاد الأساسية . وختم الدكتور لويس عوض مناقشته الطويلة بأن رفع يعقوب إلى مصاف أبطال مصر وقادتها العظام ، فاعتبره حلقة فى سلسلة الزعماء الذين شاركوا بجهدهم فى الكفاح من أجل استقلال البلاد من على بك الكبير إلى جمال عبد الناصر... » ! ! (٤٤)

والغريب أن الدكتور لويس عوض تعمد فى حديثه المطول ودفاعه



الحار عن يعقوب ومشروعه أن يغفل الإشارة إلى مذكرتى لاسكاريس المرفوعتين إلى بونابرت وتاليران واللتين وقعهما ثمر افندى ، مع أنه رجع إلى بحث الأستاذ شفيق غربال الذى أورد نص هاتين المذكرتين وناقشه فى أكثر من موضوع ، وليس هذا من الأمانة العلمية فى شىء . ولو كانت مناقشة الدكتور قد امتدت إلى هاتين المذكرتين لوفر على نفسه وعلى قرائه الكثير مما قدمه تمجيدا ليعقوب ومشروعه ، فمجرد وجود مشروعين متناقضين بهذه الصورة يكفى — كما أوضحنا — لإلقاء الضوء على أهم أحداث تلك « المسرحية البحرية » التى أسلفنا عرض مشاهدها ، ولتقويم أدق لكل من يعقوب ولاسكاريس وأفكارهما عن مصر ومستقبلها .

والأمر الذى لاجدال فيه أنه اذا كان المعلم يعقوب قد نزع ، إبان الحملة الفرنسية فحسب ، إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، فقد كان هذا النزوع من خلال نظرة ضيقة أملتها عاطفة طائفية لا وطنية فيها ولا بطولة ، وغذاها طموح شخصى يستهدف تحقيق منافع ذاتية . والتاريخ يسجل لنا على أية حال أن يعقوب لم ينفرد وحده فى تلك الايام بمثل هذا النزوع الذى يغذيه طموح شخصى والذى لا وطنية فيه ولا بطولة ، بل نحا هذا المنحنى غيره من شخصيات مصر البارزة ، وإن خلا نزوعه من العاطفة الدينية .

شكل ( ٧ ) مراد بك

# المملوك العميل

لقد رأينا كيف أن مراد بك ، الذى فر إلى الصعيد أمام قوات جيش الحملة بعد أن عجز هو وزميله إبراهيم بك عن مقاومة الغزو الفرنسى على مشارف القاهرة ، ظل يناوىء ويناوش قوات ديسيه المتوغلة فى الوادى الضيق قبل أن يوقع اتفاقية « سلام وتحالف » مع الجنرال كليبر وقد قضت هذه الاتفاقية بأن يحكم مراد بك الصعيد الأقصى باسم الجمهورية الفرنسية فى مقابل التزامات معينة ( شكل ٧ ) .

إن مراد هذا — الذى أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الجيزة ! — قد تعاون مع المحتل الفرنسى بعد هذه الاتفاقية إلى أبعد حدود التعاون . وكانت صلته بسلطات الحملة فى القاهرة صلة التابع المخلص الأمين . ولم يكن أقل من يعقوب ولاء للفرنسيين وعملا على خدمة مصالحهم . ومن مظاهر ذلك ما يثير أمرّ مشاعر الأسى والأسف . فعقب اغتيال الجنرال كليبر مثلا بعث مراد بك برسالة تعزية الى قائد الحملة الجديد الجنرال منو ( وهى من الوثائق التى لم يسبق نشرها ) [٤٥] . وقد أعرب مراد فى هذه الرسالة عن أسفه العميق على هذا الحادث واستنكاره له ، ووصف مرتكبه بأنه « خاين وقليل

الفروة » . ثم ذكر أنه حصل له غاية الفرح والسرور بتولى مير قيادة الحملة ومسئولية الحكم . وأكد أن العلاقة بينه وبين السلطات الفرنسية ستبنى على الثقة وأنه « على المحبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول ، ... نسعى الله تزيد المحبة والتوفيق » . ولم يجد مراد بك بعد هذا بأسا — مع أنه يكتب رسالة تعزية — فى أن يذكر الحاكم الجديد بمقتضى سبق أن أرسله إلى القاهرة مع أحد اتباعه ( الأمير إبراهيم كتخدا ) يعتذر فيه عن تقصيره فى إرسال كامل مستحقات الحكومة المركزية فى القاهرة مما يحبه من الأموال الأميرية : « وحضرتكم تتحملونا وتقبلوا عذرنا فى مسألة تأخيره لأن حاصل لنا تعب من قبل المعايش والأمر إلى الله يعالى وعلى حضرتكم ... » . وقد عزز مراد بك رسالته هذه فبعث بصور طبق الأصل منها إلى سائر جنرالات الحملة .

نضع فى عرض حقائق أخرى وضرب مزيد من الأمثلة لتوضيح ما دار بين القنصلية بين مراد والفرنسيين ما يساعد على فهم أرجح المواقف بعقوب وحكم أصدق على ما حدث من تعاون وارتباط بين مساعدات الحملة وبعض من نظائهم سماه مصر من أبناء البلاد وغيرهم . فمما تجدر ملاحظته أن اتفاق كليبر ومراد كان فى الواقع تحقيقا لفكرة نوشتت بونابرت فى بداية عهد الحملة . وقد فوض لمحاولة تحقيقها روسى (Roseti) قنصل النمسا فى الاسكندرية وفقا (٤٦) ، تماما كما كان يتناول الفريق الخيطى وفرقة الأروام تجسيدا لبعض خطط ذلك القائد المذكورة . ويلاحظ كذلك ، وهذه نقطة بالغة الأهمية ، أنه كان من أغراض تلك الاتفاقية الموقعة مع مراد بك تسليم مصر إليه عند خروج الفرنسيين منها . وقد أعرب مراد عن أمله فى تملك مصر فى رسالة منه إلى الجنرال كليبر قبل عقد الاتفاقية ، فقال إنه « يرغب فى أن ينضم إلى الفرنسيين ويتحالف معهم .. وإنه يطلب الاستقرار فى جزء من البلاد ، حتى إذا جلا الفرنسيون عن مصر استطاع مع ما يمتلكونه به من أجناد أن يستولى على هذه البلاد التى هو مساحبها ولا يستطيع غير الفرنسيين



حرمانه منها ... » (٤٧) .

ويؤكد هذا الموقف من مراد مؤرخو الحملة الثقات من الفرنسيين وغيرهم . فيقول البارون أرنوف (Arnouf) مثلا الذى أرخ للجنرال كليبر ، إن مراد طمع فى حكم مصر تحت السيادة الفرنسية لخوفه من أن تؤدى عودة السيادة العثمانية إلى القضاء على قوة المماليك ، وإنه كان يسمى نفسه فى الصعيد « السلطان الفرنسى » . ويقول ريجو إن الاتفاقية التى وقعها مراد مع كليبر تدل على بعد نظر سياسى ، لأنه فى الوقت الذى يغادر فيه الفرنسيون مصر — وكان ذلك متوقعا — سيكون من السهل عليهم أن يخلفوا فيها مراد بك ملكا على البلاد كما كان يأمل ، وبذلك يمكن الحيلولة دون وقوعها تحت حكم الإنجليز . وقد ردد مراد نفسه هذا المعنى مرة أخرى فى رسالة بعث بها إلى الجنرال دونزلو (Donzelot) — أحد كبار قواد الحملة — بعد عقد اتفاقيته بشهرين (٤٨) .

وفى تلك الأيام المضطربة التى حفلت بكثير من الأحداث والتى عانى فيها المصريون من مختلف ألوان الشدائد والمحن ، والتى بدأت بعقد اتفاقية العريش وانتهت بانتصار كليبر فى موقعة عين شمس على القوات العثمانية والإنجليزية المشتركة ، كان مراد بك كما كان المعلم يعقوب من أكبر الدعامات التى استند إليها ظهر الحملة الفرنسية فى مواجهتها للزحف العسكرى من الخارج وللثورات الشعبية من الداخل . لقد كتب « جالان » (Galland) و « برتييه » (Berthier) وهما من رجال الحملة أن مراد بك قدم للفرنسيين فى أثناء ثورة القاهرة الثانية ( بعد نقض الصلح مع العثمانيين ) المؤن والذخائر وسلمهم العثمانيين اللاجئين له ، وأرسل لهم المراكب المحملة بالأحطاب والمواد الملتهبة لإحداث الحرائق اللازمة لإخماد الثورة التى كانت قد اشتعلت كذلك فى مناطق أخرى غير القاهرة . وكان بفضل هذه المؤن والمهمات والمواد

التى زود بها مراد الفرنسيين أن استطاعوا فعلا إخضاع الثورة بعد أن أحرقوا حى بولاق وغيره [٤٩] . ويقول الجبرتى فى هذا الصدد أيضا إن مراد بك « عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا ( العثمانى ) من أغنام وخيول وميرة وكان شيئا كثيرا فتسلم الجميع منه وعدى درويش باشا الى الجهة الشرقية متوجها إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر ( اى القاهرة ) [٥٠] » . هذا فى الوقت الذى كان يعقوب — كما رأينا — يساند فيه الفرنسيين عسكريا بقتاله لمن تسلل إلى القاهرة من المماليك والعثمانيين ، ويساعدهم كذلك فى تحصيل ما فرضوه على المصريين من مغارم .

وبينما منح قادة الحملة ليعقوب رتبة فى الجيش الفرنسى ، فإنهم كانوا يعتبرون مراد مواطنا فرنسيا . وقد حدث فى أول عهد منو ، قبل بدء العمليات الحربية بين الفرنسيين والقوات المشتركة ، أن تدخل مراد بك محاولا التوسط بين العثمانيين وقيادة الحملة لإجراء مفاوضات جديدة ، وبعث بنائبه عثمان البرديسى إلى القاهرة ومعه رسالة بهذا المعنى . ولكن منو رفض هذه المحاولات وأدان بشدة اتصال مراد بالمعسكر العثمانى ، وقال إن مراد بك هو أحد مواطنى الجمهورية ( un des membres de la Republique ) ويجب عليه أن يهتم بشئونه وألا يتجاوز حدوده [٥١] .

وكما عكس الجبرتى شعور المصرين تجاه شطط يعقوب وتطرفه فى التعاون مع الفرنسيين بكثير من الامتعاض والسخط ، فكذلك فعل فى مناسبة وفاة مراد ( خلال عهد منو ) فأفاض فى ذكر مظالمه ، وذكر بكثير من الاستنكار ما قدمه للفرنسيين من خدمات ، ثم قال « إنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور »[٥٢] .

ولقد نظر الفرنسيون إلى محاولات البعض التقرب إليهم وبسط اليد



للتعاون معهم أو محاولتهم هم لاحتواء هذا « البعض » ومد جسور الصداقة إليهم .. نظروا إلى كل ذلك نظرة واقعية مكيافيللية لها غاية محددة واحدة ، هى مصلحة الجمهورية الفرنسية ، مهما اختلفت الوسائل وتنوعت السبل لتحقيق هذه الغاية . وكانت هذه النظرة فى الوقت ذاته واعية متبصرة . إنهم رموا شباكهم على مراد وأفلحوا فى اصطياده ، ورحبوا بتعاونه وتفانيه فى خدمة مصالحهم ، ولم يجدوا فى تطلعه إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية وطموحه إلى التربع على عرشها فى ظل حمايتهم أمرا غير عادى أو لا يدخل فى دائرة الممكن . لقد كانوا يعلمون جيدا أن السيادة العثمانية على مصر هى فى حقيقتها اسمية روحية ، وأن الحكم الفعلى للمماليك الذين قال عنهم بونابرت قائد الحملة فى منشوره الأول إلى المصريين إنه حضر للقضاء عليهم . وكانوا يعلمون كذلك أنه ليس غريبا أن يتطلع رجل كمراد بك إلى حكم مصر منفردا ، فقد كان عند قدوم الحملة يتقاسم وزميله إبراهيم بك منصب مشيخة البلد ، أى زعامة طائفة المماليك التى كانت تمثل رأس السلطة التنفيذية فى البلاد . وكانوا يعلمون أيضا أن المصريين اعتادوا على حكم المماليك مع ما يقترن به من مظالم ومفاسد ، وليس من العسير أن يصلوا ما انقطع بعد اضطرار الفرنسيين إلى الجلاء بقواتهم عن البلاد . ومن هنا أيدوا فى اتفاقهم مع مراد فكرة تنصيبه بحمايتهم سلطانا أو ملكا على مصر بعد جلائهم ، واعتبروه منذئذ مواطنا فرنسيا .

ويذكر لنا الجبرتى اهتمام الفرنسيين غير العادى بخبر وفاة مراد المفاجئة بالطاعون قبل توقيع بايار لاتفاقية الجلاء عن القاهرة بنحو شهرين . فقد أرسلوا « جوابات إلى الأمراء المرادية يعزونهم فى أستاذهم ( أى زعيمهم ) ، بل وتدخلوا كذلك فى تعيين من يخلفه فى زعامة المماليك ، فبعثوا « تقريرا إلى عثمان بيك الجوخدار .. بأن يكون أميرا ورئيسا على خشداشينه ( أى زملائه ) وعوضا عن مراد بك »[٥٣] ونحن نعلم أن زعامة مماليك مراد الموالين لفرنسا آلت فيما بعد إلى عثمان البرديسى ،

وأن الإنجليز كذلك استمالوا لتأييدهم فريقا آخر من المماليك بزعامة محمد الألفى ، هذا بينما كان محمد على يصارع مختلف القوى متلمسا طريقة للانفراد بحكم مصر من خلال الشرعية العثمانية .

أما علاقة الفرنسيين بالأقباط وزعمائهم فكانت أمرا مختلفا تماما . فقد لجأت اليهم سلطات الحملة لمساعدتها فى تدبير الشئون المالية للبلاد بحكم ما يملكونه من خبرة طويلة فى هذا الصدد ، وما توافر لديهم من بيانات ومعلومات تتصل بالدخل العام ومساحة الأراضى الزراعية وتفصيلات ما تقرر عليها من ضرائب وما إلى ذلك . وزاد اعتمادهم على العنصر القبطى فى جباية الأموال وحسابها بعد أن تبين تقصير موظفى الإدارة الفرنسية وإهمالهم . ومع هذا فإن أولئك الجباة والصيارفة لم يكونوا عند حسن ظن الفرنسيين بهم . ويجمع مؤرخو الحملة ، نقلا عن وثائقها ، على أن المحصلين نهبوا أموال البلاد ، واشتدوا فى عسفهم وجورهم ، وغلوا فى استباحتهم أموال الناس وعبثهم بكرامة دافعى الضرائب من الفلاحين وغيرهم . وتحفل كتابات هؤلاء المؤرخين بكثير من الأمثلة الصارخة على ذلك . ولقد بذلت حكومة الحملة وبخاصة فى عهد منو جهودا كبيرة لمحاولة تغيير هذه الأوضاع والتخلص من هيمنة أولئك الجباة ، بإعادة التنظيم الإدارى ومراجعة تصرفات الموظفين والدقة فى فحص الحسابات ... الخ .

وقد اتخذ عبد الله منو فى هذا الصدد موقفين حاسمين قلبا موازين العلاقات بين سلطات الحملة والأقباط :

١ – فعندما أبلغه إستيف ( Estève ) مدير الشئون المالية للحملة باكتشافه لاختلاسات جسيمة من الأموال العامة أمر بالقبض على أنطون أبى طاقية وملطى وألزمهما برد المبالغ التى اختلسها الجباة الذين يعملون تحت إشرافهما . أما يعقوب فأفلت من هذا المصير إذ تركزت جهوده فى التعاون مع الفرنسيين بعد كليبر فى





الجانب العسكرى ، فانصرف إلى حد كبير عن النشاط المالى وما جرته عليه جباية المغارم والفرد هو وأتباعه من احتكاكات ومصادمات مع المواطنين . وتعكس عريضة تظلم من ملطى وأنطون إلى القائد العام ( لم يسبق نشرها ) أثر ما اتخذه منو إزاءهما من إجراءات.إنهما يشكوان ما وقع بهما قائلين « .. وقد زاد علينا الحال حتى ظهرنا من جملت ( كذا ) العصاة على أوامركم .وقد **قاصمتمونا لذلك** فاقتضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعينوا بأمركم اناسا من أهل الفطنة خالين الغرض ممن ترونهم أنتم يقعدوا فى مابيننا ( كذا ) **ويتبصروا فى حال** حسابنا .. » ثم يستشهدان بزميلهما يعقوب ، ويشيران إلى أنه لم يستطع الشفاعة لهما أو الوساطة من أجلهما : « ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادمكم الخاص حضرة الجنارال ( كذا ) يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع مختار كيف يتصرف فى مثل هذه الدعوة .. » ( شكل ٩ ) .

٢ – وعندما كون منو ديوانا جديدا فى أكتوبر ١٨٠٠ عدل عن تعيين ممثلى الأقليات فى هذا الديوان كما كان عليه الوضع منذ أنشأ بونابرت الدواوين . وقال فى المادة الثالثة من المرسوم الخاص بإنشاء هذا الديوان « فلابد من إقامة ديوان بمصر مؤتلف من جماعة العلماء أو من أناس آخرين مسلمين الأوفر امتداحا بالفضل والمعرفة والمنزهين عن محبة المال ... » . وقال الجبرتى عن هذا الديوان إنه أنشىء « على نسق الأول من تسعة أنفار متعممين لاغير وليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولا شامى ولاغير ذلك .. » . وكان الجبرتى نفسه أحد الأعضاء التسعة فى هذا الديوان » (٥٤) .

ومؤدى هذا كله أنه كان من المستبعد تماما أن يفكر الفرنسيون وهم يخططون لمستقبل علاقاتهم بمصر فى الاعتماد على زعيم من زعماء الأقلية

القبطية لينولى السلطة فى صالحهم أو تحت حمايتهم ، بعد أن يضطروا إلى إجلاء قواتهم عن البلاد ، مهما كان ولاء هذا الزعيم لهم ومهما بالغ فى خدمة مصالحهم .

لقد أفلح الفرنسيون — كما رأينا — فى اصطناع بعض المماليك ، ولكن التطورات التاريخية قضت على قوة المماليك « المصرية » بمختلف أحزابها واتجاهاتها . وحاول الفرنسيون كذلك أن يصطنعوا — أو يصانعوا — علماء الأزهر بوصفهم قادة الشعب وموضع احترامه وإجلاله ، وتقربوا إليهم بشتى وسائل الإغراء والتهديد ، حتى أرغموهم أحيانا على أن يوجهوا منشورات إلى المصريين أو يبعثوا برسائل إلى قادة الحملة ، تجعلهم يبدون فى صورة المؤيدين للحكم الفرنسى والموالين لمبادىء الثورة الفرنسية العظيمة ! ولكن هذه المحاولات كان مآلها المتوقع هو الفشل الذريع ، ولم تستطع أن تهز من مكانة هؤلاء العلماء أو تغير من توقير الناس لهم وإيمانهم بقيادتهم . أما اصطناع يعقوب أو من إليه من زعماء الأقلية فكان أمرا مرحليا وبصورة محدودة فى أثناء حكمهم للبلاد . ولكن اصطناعه لينفذ لهم مخططا آجلا أو ليعينهم على تحقيق غاياتهم ، إنما هو أمر لم يكن ليخطر لهم على بال ، لأنه كما قال أحد مؤرخيهم « أشبه بالمراهنة على الحصان الخاسر » .

* * *

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم تزد مساحتها الزمنية على ثلاثة أعوام ، ولكنها حفلت بالكثير من الأحداث والمتغيرات . وانقشع عن البلاد ظلام الاستعمار الفرنسى ، وأفاقت مصر من صدمتها وما خلفته من عبر ودروس لتستأنف مسيرتها عبر حقب التاريخ ، ولتصبح بعد قليل أمة ناهضة موحدة تبنى دولة حديثة ، وتتبلور على مر السنين مشاعرها الوطنية الخالصة ، وتتأكد قوميتها الذاتية وانتماءاتها الطبيعية ،



ولتشق طريقها بمسلميها وأقباطها نحو التقدم والنماء ، تصارع كدأبها كل ما رزئت به من محن ، وتقاوم فى بسالة ما نكبت به من احتلال آخر جثم على صدرها عشرات السنين ، ولتضرب بشعبها العظيم وأبطالها الخالدين أروع الأمثلة فى الوطنية والكفاح ، ولتبهر العالم بثورة ١٩١٩ التى اعتنق فيها الهلال والصليب فى وحدة لم يسبق لها أو يلحق بها نظير ، ولتفخر بأبنائها وما يقدمون لها كل يوم من عطاء وفداء .